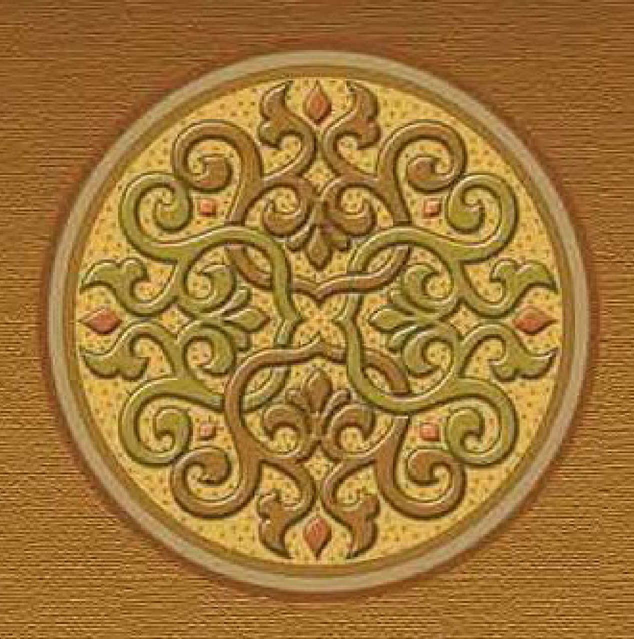
عبادة التفكير



الشيخ محسن عطوي

إصدار المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين(ع)



الطبعة الثانية

١٤٣٣هـ ــ ٢٠١٢م

إصدار المركز الإسلامي الثقافي

لبنان ـ حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

هاتف: ٥٥٧٠٠٠/ ٠١ ـ ٥٤٤٤٠٢/ ٠١

خليوي: ٥٦٥٠٧٤/ ٠٣

❊ ❊ ❊

البريد الإلكتروني

info@tawasolonline.net

info@fadlullahlibrary.com

❊ ❊ ❊

المواقع الإلكترونية ـ المركز الإسلامي الثقافي

www.tawasolonline.net

www.fadlullahlibrary.com

youtube/tawasolonline

Facebook:

مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة

تواصل أون لاين

عبادة التفكير

الشيخ محسن عطوي

المركز الإسلامي الثقافي

مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

لبنان ـ حارة حريك



المقدّمة

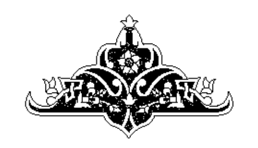
والله الموفّق

مدير المركز الإسلامي الثقافي

شفيق محمد الموسوي

رمضان ١٤٣٣ هـ

آب ٢٠١٢ م



المقدمة

لا تنحصر عناية التشريع بما هو ظاهر من نشاط الأفراد والجماعات فقط، بل هو يهتمّ ـ أيضاً ـ بالتشريع لـ(الفكر) من حيث هو فعل داخلي له ماهية وهدف ومجالات وكيفيّة، فيحتاج إلى نظام معين ينرسم فيه مساره، ويتبيّن فيه حَسَنُه من قبيحه، وواجبه من حرامه، ليكون من هذه الجهة مثل سائر الأعضاء والأنشطة الإنسانية، خاضعاً لتشريعه الخاص الذي به يحقّق وظيفته المرجوّة منه، ويصل به صاحبه إلى رضوان الله تعالى.

ورغم أنَّ (الفكر) موقع نشاط دائب لا يتوقف نهاراً ولا ليلاً، ورغم أنّه يعمل بقرار إراديٍّ واعٍ من صاحبه، ويعمل أيضاً بدون قرار، ورغم أنّه أصل كلّ نشاط إنسانيّ ومبدأه، خيراً كان ذلك النشاط أو شرّاً، فذلك لا يعني أنّه فوق أن يشرّع له، أو ممّا يصعب أن يُقولب ويُقنّن ويُجعل في مسار معيّن، ويُضفى على نشاطه المتنوع عنوان (المشروع) والجائز، أو عنوان (غير المشروع) والمحرّم، بل إنَّ الإسلام قد توقّف مليّاً وطويلاً أمام مسألة الفكر الإنساني وأجاب عن تساؤلات عديدة مثل:

ـ ما هي نظرة الإسلام إلى الفكر من حيث قيمتُه ودورُه؟

ـ ما هو العقل وما هو الذهن وما هي علاقتهما بالفكر؟

ـ هل يُؤاخذ الإنسان على خواطره الذهنية الفاسدة، ومتى تصير الفكرة موقفاً

يؤاخذ عليه المكلف ويُسأل عنه؟

ـ هل أجاز الشرع الإعلان بالرأي مهما كان، وما هو مدى حرية الرأي؟

ـ هل الاجتهاد في الشريعة مقبول، وما هي حدوده؟

ـ ممّن يأخذ المسلم ثقافته وكيف؟

ـ وما هو حدّ الإيمان والكفر والبدعة..؟.

وهكذا سيثير (الفكر) الكثير من هذه الأسئلة حين نقف في مواجهته لنجعله في موقعه الفاعل في مسيرة الإنسان في الدنيا، وفي نجاته يوم القيامة، يوم الحقيقة الكاملة الحاضرة، والاستنارة الساطعة؛ وهي أسئلة رأيتُ أنّ الإجابة عنها ستساهم في وضوح مدى معذورية حامل الرأي الآخر حين يختلف الناس معه، ومدى (معقولية) اتهامه بالكفر والضلال، وذلك أمام تحوُّل (التكفير) إلى عنوانٍ غاشمٍ قد صار يسود قَدَراً مهمّاً من العلاقة بالآخر، ويهدّد حياة الفرد واستقرار المجتمع، فتترحم عليه حين كان (سُبَّةً) يتقاذفها من لا خَلَاق لهم من علماء المذاهب، دون أن تتعدّى بطون الكتب ومجادلات المتعصّبين، عسانا نساهم في مزيد من التقريب بين المختلفين، ونخطو خطوة مهمّة لتعزيز وحدة المسلمين، بل ووحدة المؤمنين من أبناء المذهب الواحد.

والله تعالى من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محسن محمد عطوي

بيروت صيف ٢٠٠٧ م





هذا الداخل الفريد

(أنا)، هو هذا الداخل المغرق بخصوصية الذات، والذي يتميَّز به كلّ واحد عن الآخر، على ما للأفراد من تعداد هائل على مدى القرون التي عاشها البشر، دون أن يشبه شخص في (أناه) (أنا) شخصٍ آخرَ رغم ما قد يكون بينهما من قربى.

وماذا في هذا الداخل؟

فيه ضجيج الإدراك والوعي، وحركة المشاعر والأحاسيس، وتيار الخواطر المنطلق في كلّ اتجاه، وفورة الإرادة الموجِّهة لأعمال الجسد، بل والموجّهة للخواطر إن شاءت، جميع ذلك يختلط في داخلنا في تكامل رائع جميل ومتناسق، فيضفي على الحياة الإنسانية ـ في جانبيها الفردي والاجتماعي ـ (الوعيَ) بكلّ مجالاته، أي: وعي النفس، ووعي الآخَر، ووعي المحيط، ثمّ وعي مفيض هذا الإعجاز وخالقه، وهو الله تعالى ربّ العالمين.

لقد بتنا اليوم جازمين بأنّه ليس في هذا الداخل إلا شيء واحد، هو هذا الذهن الذي تجتمع فيه المدركات من شتّى مصادرها:

- فأمور مثل الجوع والألم والخوف ونحوها ممّا يصدر عن الجهاز العصبي، ستصل إلى الذهن ليعيَهَا ويدفع صاحبه ليتصرّف وَفقها.

ـ وأمور مثل المعلومات الحسّية التي تَصدُر عن الحواس ستصل إلى الذهن ليستوعبها ويصوغها قضايا جديدة نافعة.

ـ وأمور مثل المدركات الفطرية التي تُخلق مع الذهن وتعايشه منذ الصغر، هي أمور سيستخدمها الذهن ميزاناً يميّز فيه صواب الرأي من خطأه، ومختبراً لخلق واصطناع أفكار جديدة.

ـ وأمور مثل المحبة والسرور والكآبة، هي مشاعر تعمر بها النفس كردّات فعل على تفاعلها مع محيطها من جمادات وكائنات حيّة، وهي ستصل إلى الذهن ليعيَها وليوصيَ صاحبه بالتكيّف معها بمواقفَ وحالات مناسبة.

وهكذا تتعدّد الأسماء التي قلناها عن هذا الداخل، عقل، فكر، ذهن، قلب، نفس، عاطفة، مدارك، وعي، ضمير، روح، إحساس، شعور،... إلخ، لكنّها ليست إلا هذا الذهن الذي لا يوجد في داخلنا سواه، وما هذه الأسماء إلا لتمييز المدركات بعضها عن البعض الآخر بسبب تمايز مصادرها أو آثارها، والتي ستتعاون لتكوين (داخل) خاص بكلّ فرد، هو الذي يصوغ شخصيته ويقود سلوكه.

قول الله للعقل

«لمّا خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: أقبِلْ، فأقبَلَ، ثمَّ قال له: أدبِرْ، فأدبَرَ، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحبّ، أما إني إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أعاقب وإيّاك أثيب»[1].

العقل في اللغة هو: فهم الشيء أو الأمر أو المعنى واستيعابه والإحاطة به، وحين يكون سببُ تقدير الله تعالى له هو أنّه أقبل وأدبر حين أُمِرَ بهما، فلأَنّ ذلك رمزُ وعيه لمضمون الأمر ومضمون النهي، من حيث هما صلاح له يطلبه العاقل ويسعى إليه، ومن حيث هما وعيٌ للنفس وللتكليف ولضرورة انقياد

(١) الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج ١ ص: ١٠.

الداني والناقص للعالي الكامل (عزّ وجلّ)، ولأنَّ له قبل ذلك دوراً فريداً في إفاضة المعنى على هذا الوجود، وعلى موقع الإنسان فيه ودوره ومصيره خلال حياته وبعد وفاته، فهو بمثابة المصباح الذي تنقشع به الظلمة وتستبين به الأشياء، إذ كما أنّه لا معنى للشجرة إن لم يدرك أحد دورها وفوائدها ويعمل ليجتنيَ تلك الفوائد، وكما لا معنى للشمس إن لم ندرك موقعها في مجرّتها وعلاقتها بالأرض ومدى فائدتها للأرض وما عليها من مخلوقات، فإنّه ـ أيضاً ـ لن يكون معنى لوجود الإنسان إلا إذا كان له عقل، به يدرك دوره، وبه يسعى للانسجام معه وتحقيق الأهداف المرتجاة منه، ليكون ذلك أساساً للحياة الفاضلة التي تتطوّر وتسمو كلّما نما ذلك الفهم وتطوَّر.

وقد أكّد القرآن الكريم ذلك المعنى في الآيات الكثيرة التي استخدم فيها لفظ العقل بمعنى الفهم والإحاطة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾[العَنكبوت: ٤٣] ، أو تلك التي استخدم فيها لفظ الفقه، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعَام: ٩٨]، أو تلك التي استخدم فيها لفظ اللبيب، فقال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[صَ: ٢٩].

وهو ذلك الذهن أو الفكر الذي يستوعب الأمور ويتحرّك وفقاً لما يناسبها، وهو الذي عليه مدار الاعتقاد والإيمان والعمل الصالح والحكمة والخُلق الفاضل، وهو الذي من أجله وصف الله تعالى عباده الصالحين بذوي العقول والألباب، وأنّهم هم الذين يعقلون، وهم الذين يفقهون، وهم الذين أوتوا الحكمة، وهم العلماء، وذلك لأنَّ العقل هو ـ حقّاً ـ صفة فاضلة ووسام رفيع لمن عرف الحقّ واختار طريق الهدى والصلاح والاستقامة من بين ركام الخيارات والمعلومات وما يرافقها من مغريات،

ولأنَّ العاقل ليس فقط ذلك الذي (علم)، بل هو الذي اختار (الأفضل) من بين ما يختزنه ذهنه من معارف، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزمر: ١٧ ـ ١٨].

وعن علي(ع) أنّه قال: «**العقل حفظ التجارب، وخير ما جرّبت ما وعظك**»[١]، وعنه (ع) ـ أيضاً ـ أنّه قال: «**الروح حياة البدن، والعقل حياة الروح**»[٢].

العقل منبع المعارف

لا يختلف النّاس مهما كانت عقائدهم أو مستواهم الثقافي أو درجاتهم في الحضارة، على أفكارٍ نسمّيها بالبديهيات، فهم لا يختلفون على أنّ الحرارة والبرودة ضدان لا يجتمعان في جسد واحد في وقت واحد، ولا على أنّ الشيء لا يكون موجوداً ومعدوماً في وقت واحد، ولا على أنّ العدل حسن والظلم قبيح، ولا على أنّ لكلّ نتيجة سببها، ولا على أمور كثيرة من هذا القبيل، لأنَّ هذه القضايا هي على درجة من الوضوح جعلتها موضع توافق جميع الناس في جميع العصور، يدركونها بدون تفكّر وتأمّل لأنّها من المعلومات المركوزة في الفطرة الإنسانية، والموجودة في الذهن البشري بدون تعليم واكتساب، ورغم أنّ الفلاسفة قد صنّفوا هذه القضايا وسَمَّوها بأسماء مختلفة، مسلّمات وفِطرّيات وأوّليّات وغير ذلك، فإنّهم قد جمعوها تحت اسم (المدركات العقلية)، وجعلوها ركيزة سائر المعارف التي ستتراكم جرّاء تنوّع مصادر المعرفة البشرية، وقيام هذه المدركات العقليه بدور المفسّر والمحلّل والمستنبط منها ليتوصّل منها إلى مزيد من المعلومات، وصاروا حين تطلق كلمة (العقل) يريدون به تلك المدركات العقلية، أي: ما تكون أحكامه بديهيّة على

(١) لبيب بيضون، تصنيف نهج البلاغة،ص: ٦٩٧، الطبعة الثالثة، قم.
(٢) م ن، ص: ٦٩٩.

المستوى النظري أو العملي، وذلك في قبال المعارف المستقاة من الحسّ أو الوحي، قال أمير المؤمنين(ع): «**العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء**»[1].

وقد تابعهم الفقهاء في هذا الاصطلاح، فاستخدموا كلمة (العقل) بهذا المعنى اسماً لواحد من الأدلة الأربعة على الأحكام الشرعية، إلى جانب القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة والإجماع، وصار ـ العقل ـ بذلك من أدوات استنباط الأحكام الشرعية المستخدمة من قبل الفقهاء المجتهدين.

الكشف والمعرفة المدّعاة

نريد بـ(الكشف) حضور المعرفة في الذهن من خلال التعبّد لله تعالى، وذلك بحسب الغالب عن طريق التصوّف أو العرفان، ويراد بـ(التصوّف): (ترك الاشتغال بشؤون الدنيا والتفرّغ للعبادة)، والتصوّف والصوفيّ: لفظان مأخوذان من الصوف الذي تنسج منه الثياب، وذلك كناية عن الزهد في الدنيا ولبس الخشن من الثياب. وقد صار (التصوّف) يترقى من كونه مجرد طريقة في الحياة ترتكز على مواجهة النفس وجعلها مشغولة دائماً بذكر الله تعالى والتعبّد له، إلى أن صار علماً له قواعده وأفكاره، التي صارت تتبلور وتتخذ لها كياناً فكرياً وسلوكياً خاصاً ينسب إلى هذا العالم أو ذاك، بل إنّه قد تعاظم شأن بعض المتصوّفة وصارت تنسب لهم مذاهب في التصوّف اصطلح على تسميتها بـ (الطريقة)، وصار لها أتباع كثيرون بلغوا في بعضها مئات الآلاف، بل وعدّة ملايين.

أما (العرفان) فهو لا يختلف في العديد من مسائله عن التصوّف، لكن يبدو أنّه يتمايز عنه بأنّه لا يركّز كثيراً على المظهر ولا على الطقوس، فهو أكثر (فكرية) من

---

(١) لبيب بيضون، تصنيف نهج البلاغة، ص: ٦٩٩.

عامة الطرق الصوفيّة، ويحاول أن ينطلق في تصوراته الفكريّة وتجاربه السلوكيّة من النصّ الديني، كما وأنّي أعتقد أنّ (العرفان) مدين في معظم كيانه للفكر الشيعي، إلى حدّ يصحّ أن يوصف بأنّه (التصوّف الشيعي)، وذلك في قبال تيّار التصوّف الآخر الذي غلب عليه التأثر بالفكر السُّنّي عموماً، إن صحّ التعبير.

والذي يعنينا من هذا الموضوع ليس الجانب السلوكي، لأنّ جميع ما له علاقة بالسلوك، سواء بمعنى تهذيب النفس، أو بمعنى بذل الجهد في تحسين العلاقة مع الله تعالى والسير نحوه، هو ـ في الحقيقة ـ مأخوذ من الأوامر والتعاليم الدينية، مضافاً إليها حصيلة التجارب الذاتية التي استفادها (العابد) خلال معاناته في مجاهدة النفس وجعلها أكثر عبودية لله تعالى، ورغم أنّها أمور نافعة ومهمّة، فإنّ الذي يعنينا في بحثنا هذا ليس هذا الجانب السلوكي، بل ما صار يتبلور عند (المتصوّفة) حول (نظرية) في المعرفة، و(نهج) في اكتساب المعلومات، يصطلح عليه بـ(الكشف)، ويراد به: انكشاف الحقيقة في أمر من الأمور، لا بالمقايسات العقلية، ولا بتجارب الحسّ، ولا بنص الوحي، بل بـ(الإلهام) الذي يقع في قلب (العابد)، حين يصل في رقيّه الروحي إلى درجة عالية.

ومن المؤكّد أننا لن نخوض حواراً واسعاً في هذه المسألة، لكنّنا نريد أن نلفت النظر إلى ما يلي:

أولاً: إنّنا لا ننكر أصل فكرة: «أن يُلهم الله تعالى عبده الذي ليس بنبيّ ولا بوصيّ نبي، إلى حقيقة معينة يلقيها في قلبه ويجريها على لسانه»، وذلك لأنّ الله تعالى هو العليم المطلق العلم، وقد يخصّ بعض عباده بذلك لطفاً منه بهم كما ورد بذلك الحديث، فقد رويَ عن النبي(ص) أنه قال: «**إذا أراد الله بعبد خيراً فقَّهه في الدين وألهمه رشده**»[1]، وعن الإمام الرضا(ع) أنّه قال: «**إنّ العبد إذا اختاره الله عزّ وجلّ**

(١) محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، ص: ١٣٨، دار الحديث، قم.

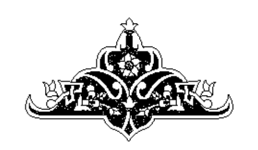
لأمور عباده شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً»[1]، لكنْ من الذي سيعيّن أنّ (هذه الفكرة) المعينة التي قالها هذا العابد هي إلهام من الله تعالى، وليست من جملة أفكاره التي تجري في قلبه كما تجري أفكار سائر الناس.

ثانياً: إنّنا لا نوافق على وجود مصدر آخرَ للمعرفة اسمه (الكشف) مستقلٍّ عن العقل، وعن وحي الله تعالى للمعصوم، وعن الحسّ، لأنّ (الكشف) لن يكون ـ حينئذٍ ـ إلا مجرد حالة مدَّعاة، ومحض ذاتية، أي: ليس لها كيان موضوعي ناتج عن أسباب واقعية، ولن يتمكّن السامع لها من إثبات صحتها أو خطأها، ولا تعيين أنّها حقّ أو باطل، بل حتّى لو سلّمنا بأنَّ (الكشف) حالة موضوعية وسبب حقيقي للمعرفة، فإنّنا لن نتمكّن من وضع ضوابطَ موضوعية لحالة الكشف (الوجدانية) هذه، كي نستطيع القول بأنّ هذا الانكشاف واقعي وذاك الانكشاف غير واقعي.

وعلى هذا الأساس فإنّنا لا نرتاح إلى سيل دعاوى الكرامات التي تُحكى عن بعض رموز التصوّف والعرفان، وإضفاء هالة أسطورية من القدرات الخارقة، رغم أنّنا لا ننكر أنَّ للمؤمن كرامة وحرمة عند الله تعالى، وأنّ تجريد النفس من نوازع الشهوات، والإقبال التامّ بالقلب على الله تعالى، سيجعل (قلب) الإنسان أكثر نقاءً وصفاءً، وسيكون أداؤه الفكري أفضل، لكننا ننكر أن يصير القلب لمجرّد اشتماله على التقوى العالية، منتجاً لأفكار خارج نطاق مصادرها، ما دام الله تعالى قد أجرى (المعرفة) بأسبابها، تماماً كما أجرى الصحة أو الرزق أو النجاح أو السعادة بأسبابها، لأننا لا نجزم أنّ ثمة مصدراً آخرَ لهذه المعرفة غير العقل والحسّ والوحي، ولأننا حتى لو سلّمنا بوجوده لن نتمكن من توظيفه في عملية المعرفة ولا في تعميمها ما دام حالة ذاتية وشخصانيّة.



(١) م ن.



التفكير عبادة

«**ساعة تفكّر خير من عبادة سنة، ولا ينال منزلة التفكّر إلا من قد خصّه الله بنور المعرفة والتوحيد**»[1] وصيّة نبوية فريدة أطلقت الفكر الإنساني من عقال الجهل وأسر التقاليد وذلِّ الانقياد للطواغيت، حين حثَّته على التفكّر في ما يرى حوله من آيات التكوين، وفي ما يطرق سمعه من أفكار، وفي ما عليه قومه من عقائدَ وتقاليدَ وقيم موروثة، شرط أن يخلوَ لنفسه معتزلاً إيحاءات الجماعة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[سَبَإ: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فهذا (الفكر) هو: (حركة الذهن بين المعلوم والمجهول) بهدف الإضاءة بالمعلوم على المجهول واستيلاد معلومات جديدة يفترض أن يخطوَ بها الإنسان نحو الأفضل في دنياه وآخرته، دون أنْ يَشْرُف عِلْم على علم إلا بقدر ما سيُقَدِّم مِنْ نفع للروح وللجسد من حيث هما وجهان متكاملان لهذا الكيان الإنساني؛ وهذا الفكر هو موقع فعلٍ هادف، لأنّه بما اجتمع فيه من معارفَ (سيتفكّر) الإنسان، أي: إنّه سيستخدم معلوماته ويحرّكها، فيمارس حريته في أن يرى ويحلّل ويقبل ويرفض، مُحقّقاً لِذَاتِه، ومتمرداً على ضغوطٍ تعمل جاهدةً

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص: ٣٢٦.

لتُبقيَهُ جامداً أو لتحرف مسار حركته نحو أفكارٍ مُمْلاةٍ بقوّة حاكم أو زخم انفعال أو وَهْم قداسة، فلا يكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٧٠].

مسار المعرفة

يولد الإنسان و«داخله» خلوٌّ من كلّ معرفة أو إدراك، ما عدا نشاط محدود لجهازه العصبي الذي يقتصر على نقل بعض الأحاسيس، كالإحساس بالألم أو الجوع أو ما أشبه ذلك، ثم تصير تنمو معارفه مع نمو جسده من خلال ما يقتدر عليه تدريجياً من استخدام لحواسه، بَدءاً من معرفته ببعض الوجوه وأُنْسه بها ومبادلتها الابتسام وتحسسه للثدي وشعوره بمزاج من يعاشره، ومروراً بتذوقه لبعض أنواع الطعام وترسخ معرفته بالوجوه وبالأشياء وقدرته على ربط بعض الأمور بأسبابها، وهي المعارف التي سيتسارع اكتسابها وتراكمها مع تسارع النموّ الجسدي والذهني والنفسي عاماً بعد عام.

لكنّ سيل المعارف هذا لا يكفي بمجرده لصياغة شخصية ناضجة، شخصيةٍ تعرف نفسها بما فيها من نقاط ضعف ونقاط قوّة، وتعرف محيطيها المادي والاجتماعي وأصول تفاعلها معهما، وتترقّى في معرفة المحيط لتتجاوز المنظور منه إلى غير المنظور، إلى عالم الغيب والملكوت، وإلى الخالق المبدع ونوع العلاقة التي يجب أن تقوم معه.

فمتى سيعرف الإنسان ذلك، وكيف سيعرفه، وما هي الطرق الموصلة إلى هذه المراحل من المعرفة وهذه الدرجة من النضج؟؟.

في هذا المجال ستنمو المعارف بنحو متشابك تتعاون فيها مكتسبات الحواس

والبداهات العقلية منذ انتقال الذهن البشري من مرحلة الطفولة الأولى إلى مرحلة استيعاب الأشياء وعلاقتها ببعضها مع قدر جيّد من المفاهيم، والتي سيدور معظمها حول حاجاته وحول بعض قواعد السلوك والآداب وبعض التلقينات الدينية، ثمَّ تصير تتعاظم بقدر ما سيتعرّض له الفتى من فرص الاكتساب والتعلّم، وبما سيكون عنده من قدرات ذاتية، كحسن الاستيعاب والذّكاء ونحوهما من العوامل الفاعلة، إلى أن تأخذ مداها في بلورة الشخصية انتماءً وسلوكاً، دون أن تنتهيَ في سنٍّ معينة من عمر الإنسان، بل تبقى تتأجّج وتثمر وتزداد في كلّ يوم، إلا إذا انغلق الإنسان على نفسه فترك التفاعل مع محيطه، أو أصاب ذهنه خلل أضعفه أو عطّله، من خرف أو جنون أو فقدان ذاكرة أو ما أشبه ذلك، وستكون مصادر المعرفة وأصولها التي إليها ترجع ومنها تنبثق ثلاثة: البداهات العقلية، والحواس، والوحي.

وبالتأكيد فإنّه لن ينفرد كلّ إنسان بسلوك هذا المسار للمعرفة وخوضه غماره من الصفر، أي: من أوّل مقالات المعرفة ومفاهيمها، بل هو سيجد الكثير ناجزاً وحاضراً في محيطه ممّا سيأخذه بالتعليم والتلقين، وهو ـ أيضاً ـ سيضيف إليه حين يتفاعل معه، وذلك مثلما أضاف كلُّ جيل شيئاً على هذا الإرث المتراكم على مدى القرون وتوالي الحضارات والأديان، وأكثر من أثّر في هذا المسار هم الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم وعلى أوصيائهم) حين حملوا دعوة الله تبارك وتعالى ووحيه الهادي، وواكبوا مسيرة البشر في كلّ زمن، مؤكّدين للسنّة الإلهية التي أوجزها القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧]، والتي فصّلها الإمام الكاظم(ع) في وصية له لبعض أصحابه قائلاً: «**يا هشام، إنَّ للّه على الناس حُجَّتين، حُجّة ظاهرة وحُجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأمّا الباطنة فالعقول**»[1].

---

(١) الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج ١، ص: ١٦.

دافع المعرفة المُلحّ

يندفع الإنسان إلى المعرفة بحماس واضح، إذ يحدوه إلى ذلك توقّف تحقيق حاجاته الأساسية، من سكن وغذاء وأمن ومشاركة للآخر، على معرفة أمور عديدة في نفسه وفي محيطه المادي والأحيائي، بل إنّه كلما ازداد معرفة ازداد وثوقاً بقدرته على مواجهة التحديات وعلى تطوير الخيارات لتحقيق المزيد من الرفاهية والازدهار الاجتماعي؛ كما أنّه سيحدوه فضول الكشف عن كثير ممّا يراه، رغبة منه في فهمه والإحاطة به، عسى أن ينفعه، وربما من أجل مجرد إشباع الفضول.

لكن هل سيقف دافع المعرفة عند حدود الحاجات الجسدية..؟

كلا، فإنَّ للإنسان تطلعاً سامياً نحو الكمال في القوّة وفي الغنى والخلود واللذة، وحين لا يجد ذلك في نفسه ولا في محيطه فإنّه سيبحث عمّن تتوافر عنده، وعن إمكان أن ينشىء علاقة معه ليحوز شيئاً ممّا عنده، بل إنّه حين يتساءل عن خالقه وخالق ما يراه حوله من بدائع الخلق وآياته الباهرة، مدفوعاً بمنطق قانون العِلّية، وبتساؤله عن سبب وجود ما يراه وعن من أوجده، وعن علاقته به، سيزداد اندفاعاً واستغراقاً في ذلك البحث عن الكامل المطلق في القوّة والغنى والخلود والترفّع عن الألم، وهو ذلك الذي سيعتبره خالقه وخالق ما حوله، وسيساعده في ذلك أشخاص مميزون هم الأنبياء والرسل، حين يبعثهم هذا الخالق الرحيم لطفاً منه بعباده وتسهيلاً لمعرفتهم به واعتزازهم بعبادته والخضوع له، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العَنكبوت: ٢٠] وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغَاشِيَة: ١٧-٢٠].

ولأنَّ دوافع المعرفة عديدة، ولأنَّ الجهل ليس هدفاً إنسانياً، فقد صار طلب المعرفة مطلباً إنسانياً مغروزاً في التكوين وفطرة مخلوقة معه، وصار الدين الذي يأمر بها ويحثّ عليها ديناً قِيَماً لأنّه ينسجم مع الفطرة ويتناغم مع الحاجات الإنسانية الأصيلة.

العلم فريضة

إنّ أعظم ما يكرّم به العلم أن تجعل طلبه واجباً، وأن تجعل النظر إلى وجه العالم عبادة، وهي ميزة تكاد تكون خاصة بالإسلام في حدود ما وصل إليه علم الناس بالمذاهب والأديان والحضارات، فما عدا ما صار عرفاً في الدول الحديثة ينص على إلزامية التعليم، وخاصة في المرحلة الابتدائية، فإننا لم نعلم أنَّ ديناً أو حضارة غير الإسلام قد أمرت بطلب العلم، بل على العكس من ذلك فإنَّ العلم في معظمه قد ظلَّ حكراً على جماعة خاصة تظنّ به فلا تبذله إلا بقدر ما يخدم مصالحها ويقوّي نفوذها، وهي إن بذلت شيئاً منه فإنّها تبذله مشوباً بالأباطيل والخرافات لتتعمد بذلك تجهيل الناس وإبعادهم عن الحق، وقد تضافرت نصوص عديدة على هذا المعنى، منها قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] ، وقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التّوبَة: ١٢٢] وعن النبيّ(ص) أنّه قال: «**ما من مؤمن ولا مؤمنة، ولا حرّ ولا مملوك، إلا ولله عليه حقّ واجب أن يتعلّم من العلم ويتفقّه فيه**»[١].

إنَّ حثَّ الإسلام على طلب العلم لم يقف على نوع واحد من العلوم، فكلّ علمٍ نافعٍ هو علم مقدّر ومطلوب، فيجب على المسلمين ـ على نحو الكفاية ـ

---

(١) محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، ص: ٢٠٣.

أن يتعلّموا منه ما يحتاجون إليه في تدبير معاشهم وإصلاح أمورهم، في الصناعة والزراعة والعمارة والنسيج والعلاج والدفاع والتربية؛ ويجب على كلّ مسلم وجوباً عينياً أن يعرف ما يتوقف عليه استجلاب النفع لنفسه ودفع الأذى عنها مِمّا هو ضروري لصلاح حال النفس وبقائها؛ وكذا يجب عليه عيناً أن يلمّ بالحدّ الأدنى من المعرفة بالعقيدة الحقّة حول الخالق وصفاته، وحول علاقته به في الحياة وبعد الممات، وبالحدّ الأدنى من الشرائع التي يلتزم بها نظاماً في حياته، في علاقته بنفسه وبربّه تعالى وبالآخرين من حوله، ليعلم بها ما له من حقّ وما عليه من واجب، ففي الحديث عن النبيّ(ص) أنّه قال: «**خير العلم ما نفع**»[1]، وعن عليّ(ع) أنّه قال: «**العلم أكثر مِنْ أن يحاط به، فخذ من كلّ علم أحسنه**»[2]، وعنه(ع) ـ أيضاً ـ أنّه قال: «**أوجب العلم عليك ما أنت مسؤول عن العمل به**»[3]، وعن الباقر(ع) أنّه قال: «**سارعوا في طلب العلم، فوالذي نفسي بيده لحديث واحد في حلال وحرام تأخذه عن صادق، خير من الدنيا وما حملت من ذهب وفضة**»[4].

وكما يجب على المسلم أن يتعلَّم فإنّه يجب عليه ـ أيضاً ـ أن يُعَلِّم غيره، فيجب عليه على نحو الكفاية أن ينهض للدعوة إلى عقيدة الحقّ ونشرها بين الناس في كلّ مجتمع لم تصله، وفي كلّ فرصة سانحة، وكذا يجب على نحو الكفاية التعريف بالأحكام الشرعية بقدر ما هو رافع لجهل الناس بتكليفهم، وحثّ الناس على الالتزام بالمعروف والتناهي عن المنكر، وحماية العقيدة والشريعة من البدع والأضاليل، وكذا يجب عليه إبداء المشورة والنصيحة في

(١) محمد الديشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، ص: ٢٩٣.
(٢) م ن.
(٣) م ن، ص: ٢٨٧.
(٤) م ن.

كلّ حالة يندفع بهما خطر عن الكيان أو الفرد؛ ففي الحديث عن النبي(ص) أنّه قال: «**ما أخذ الله الميثاق على الخلق أن يتعلّموا حتّى أخذ على العلماء أن يُعلِموا**»[1]، وعنه(ص) ـ أيضاً ـ أنّه قال: «**إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله**»[2]، وهذا جميعه بالإضافة إلى رجحان واستحباب الاستزادة من طلب العلم فيما عدا تلك الحدود الواجبة في شتى المجالات، تَعَلُّماً وتعليماً، لما فيه من سعة في الأفق ورقيّ في الكمال وازدهار في العمران والمدنية، من حيث هي أمور مرغوبة ومحبوبة لله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢] .

وقد عظّم الإسلام حقّ المعلّم المعنوي على المتعلمين منه، وعظّم ثوابه في الآخرة، وكفى بذلك عن رسول الله(ص) ما روي أنّه قال: «**من تعلّمت منه حرفاً صرت له عبداً**»[3] وعنه(ص) ـ أيضاً ـ أنّه قال: «**المعلمون خير الناس، كلما أخلق الذكر جدّدوه. فإنّ المعلم إذا قال للصبي: قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال، كتب الله براءة للصبي وبراءة للمعلم وبراءة لأبويه، من النار**»[4].

كذلك فإنّه قد حثّ المعلّم على بذل العلم مجاناً من موقع المحبّ له والحريص عليه، وحثّه على التنزّه عن الاسترزاق منه خوفاً من أن يستهويَهُ المال والربح فيجانب الحقيقة ويميل مع أهواء الناس، وفضّل له الارتزاق من بيت المال، لأنّه أكرم له وأشرف وأحوط من أن يمدَّ يده للناس فيطمع بما في أيديهم، وكلما كان بذل العلم واجباً أو ملحّاً كان لزوم التنزّه عن ترك الاسترزاق به أشدّ،

(١) محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، ص: ٢٨٧.
(٢) م ن، ص: ٣٨٨.
(٣) محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، ص: ٣٨٨.
(٤) محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة ص: ٤٢٠.

بحيث قد يصل إلى حرمة أخذ الأجرة عليه في بعض الحالات، ففي الحديث عن النبيّ(ص) أنّه قال: «**إنَّ الله يحبّ العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس، ويبغض العبد يتعلم العلم يتخذه مهنة**»[1]، وعن الإمام الصادق(ع) أنّه قال: «**إذا رأيتم العالم محبّاً لدنياه فاتهموه على دينكم، فإنَّ كلَّ محبّ لشيء يحوط ما أحبّ**» وقال(ص): «**أوحى الله إلى داود(ع): لا تجعل بيني وبينك عالِماً مفتوناً بالدنيا فيصدّك عن طريق محبتي، فإنَّ أولئك قطّاع طريق عبادي المريدين، إنَّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي عن قلوبهم**»[2]، وعن الإمام عليّ(ع) أنّه قال: «**لا يكون العالم عالماً حتّى.. لا يأخذ على علمه شيئاً من حطام الدنيا**»[3]؛ وهذا الأدب الإسلامي قد ظهر في معظم العصور الإسلامية وما يزال ماثلاً وباقياً إلى اليوم، حيث ظلَّ العلم يُبذل مجاناً في المساجد في حلقات عامة مفتوحة لكلّ راغب، وفي شتى العلوم، الشرعية منها والعقلية والطبيعية.

لا للخرافة

لقد بلغ الإسلام الغاية في إجلاله للفكر، وتقديره للتفكير، وتساميه بالعقل، وتقديسه للعلم، شرط أن يكون نتاج ذلك الفكر مرتكزاً على الدليل والبرهان، فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البَقَرَة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسرَاء: ٣٦]، وشجب اتّباع الظنون إلا ما كان منها قائماً على الأصول العلمية والشرعية، مما يصح العمل به عند انسداد باب العلم، فقال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النّجم: ٢٨] ، وأكّد على أن قيمة

---

(١) م ن ،ص: ٤١٠.

(٢) الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج ١، ص: ٤٦.

(٣) محمد الريشهري، العلم والكمة في الكتاب والسنة، ص: ٣٢٨.

الفكرة مرهونة باعتمادها على ما سبق ذكره من طرق المعرفة، أي: على ما يقع في نطاق حسّه، أو على ما هو من البداهات التي يتوصل بها إلى إدراك أمور عديدة، بما فيها بعض الغيبيات، وذلك عن طريق القياس العقلي، أو على ما هو وحي من الله تعالى، أو على ما هو من الأفكار التي يمكن استنتاجها من خلال مناهج البحث العلمي والشرعي التي تعتمد على مصادر المعرفة المعتبرة، وما عدا ذلك فهو: إمّا فكرة مبتدعة ليس عليها دليل معتبر، أو هو رجم بالغيب دونه جدار من عجز الحواس وعجز العقل لن يمكنه اختراقه إلا بإقدار من الله تعالى، لا سيما فيما يرجع إلى ما وراء الحس الذي لا يَحْسُن من أحدٍ ادعاءُ العلم به إلا أن يكون نبياً مرسلاً، قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا * ﴾ [الجنّ: ٢٦-٢٧]، بل إنّه تعالى يقطع الطريق على كلّ من تحدّثه نفسه أن يتطلع إلى ذلك بقدرته الذاتية فيأمر نبيه أن يقول: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] أتبع ما يوحى إليّ وما يعلمني ربّي.

إذن فإنّ الدين هنا حاسم، فهو قد أغلق كلّ باب يمكن ادعاؤه للمعرفة ما عدا باب العلم، وسدَّ بذلك المنافذ على شراذمَ من الأفّاكين الذين طالما خدعوا الناس وتلاعبوا بعقولهم في قديم الحضارات والمجتمعات، وما يزالون يخدعون الكثيرين منهم في أكثر الدول رقياً وفي أعظم قرون العلم تقدّماً وتطوّراً، من المنجمين وضاربي المندل وغيرهم ممن يحملون أسماء أخرى يفهم لفظها ولا يحاط بمضمونها، كتحضير الأرواح والتخاطب عن بعد والحدس وغير ذلك.

فما لهؤلاء وكشف المُغيَّب؟

ومتى قدر الإنسان على ذلك؟

وما هي هذه الوسيلة الفعالة التي أوتيها هؤلاء الذين هم كسائر الناس دون غيرهم؟

ما هو حظّها من اليقين والواقعية؟

إنّها مرفوضة في منطق الدين الذي حثّ على العلم وأعلى من شأن العقل، بل هي محرمة، ويأثم فاعلها ويعاقب، لأنّه يمتهن كرامة العقل ويجترأ على قداسة العلم، فعن النبي(ص) أنّه قال: «**أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً، حيف الأئمة، وإيمان بالنجوم، وتكذيب للقدر**»[1]، وعن الإمام علي(ع) أنّه قال: «**إيّاكم وتعلّم النجوم، إلا ما يهتدى به في برّ أو بحر، فإنّها تدعو إلى الكهانة، والمنجّم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار**»[2].

وهو كما تشدَّد في شجب التنجيم وما أشبهه من أسباب مدّعاة للعلم بالغيب، فإنه قد تشدّد في حماية الفكر من ابتداعٍ خطير اسمه (السحر)، ورغم أنَّ السحر ليس علماً ولا هو يَقْرب العلم ولو منْ بعيد، فإنّ له تأثيراً على الحواس حين يُخادعها ويدلّس عليها ويوقعها في الوهم، فتدلّس هي بدورها على فكر الإنسان وتنقل له معلومات وصوراً مُتوهّمة خادعة، وما أكثر ما تنطلي الأمور على البسطاء من الناس بأعمال السحر وفروعه، فيظنون أنّ السعادة والرزق والنسل والانتصار على العدو، وأموراً أخرى كثيرة، قد صارت جميعها في متناول اليد بمجرد أعمال أو كلمات يقولها أو يكتبها هذا (العالم الروحاني الخارق)!! كلا، فهذا وهم وباطل يشلّ العقل والقوى، ويَرجعُ بالإنسان إلى الوراء جهلاً وتخلّفاً، فلا غَرْوَ أن يهتمَّ الدين بمثل هذا الخطر، ويحرص على حماية الفكر منه، فيحرّم ممارسة السحر وتعليمه وتعلّمه، ويأمر بمعاقبة الساحر إلى درجة الحكم عليه بالموت في بعض حالاته، لأنّ حرمة الفكر وصيانته من الخرافة، وتعزيز مقومات إنسانية الفرد والمجتمع، أعظم وأهمّ عند الله تعالى من هذا (الإنسان) الذي

(١) محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، ص: ٢٩٤.

(٢) م ن، ص: ٢٩٦.

خاصم العقل وأخلد للخرافة ومارس الوهم في علاقته بالآخرين لخداعهم وتحصيل ربح سهل أو لتحقيق طموحات شريرة، ففي الحديث عن الإمام علي(ع) أنه قال: «**مَنْ تعلّم شيئاً من السحر كان آخر عهده بربّه**»[1].

العقيدة أولاً

العقيدة هي مجموعة الأفكار التي تعبّر عن قناعة الإنسان الجازمة في أمور معيّنة، مثل مبدأ الكون ومصيره، وخالقه ومدبّره، وموقع الإنسان فيه ومصيره، وعلاقته بالخالق وبالآخرين، وغير ذلك من الأفكار التي هي إجابة حاسمة ونهائية عن تساؤلات مشروعة وملحّة، كانت قد واجهت الإنسان منذ لحظة وجوده، وهي ما تزال تواجهه، حين اكتملت مداركه، وصار يتجاوز مطالبه المادية التي أمكنه تحقيقها بنحو من الأنحاء وبدون معاناة فكرية ووجدانية كبيرة، ليرى أنَّ ثمّة أموراً معنوية تحتاج إلى أن يتوقّف عندها ويهتم بها، مثل علاقته بأسرته، وعلاقته بالجماعة التي يشاركها في أمور عديدة، ومعنى ظاهرة الموت التي يشاهدها، وظاهرة ما يختلج في نفسه من أفكار وتخيلات ورغبات، وظاهرة السماء وما يصدر عنها وما يحدث فيها من رعد وبرق ومطر ورياح وظهور لكواكبَ كبيرة وصغيرة، وظاهرة احتراق الأشياء، وظاهرة ولادة الإنسان والحيوان والنبات والحشرات، وذلك حين كان متفرغاً لمراقبتها في طبيعة تضجّ بالحياة والتجدّد، فتسترعي اهتمامه وتثير فضوله بدفق عطائها وتوالي خيراتها.

إنَّنا لا نعلم كيف ومتى بدأ الإنسان تلك التساؤلات، ولا بماذا أجاب عنها، لكننا نجزم أنّه كان يحسن استخدام المعارف الأولية الفطرية المغروزة في ذاته، فيستهدي ببداهة قانون العليّة لمعرفة علاقة الأشياء ببعضها كأسباب

(١) محمد الريشهري، العلم في الكتاب والسنة، ص: ٢٩٧.

ونتائجَ، وليدفعه للتساؤل، وليساعده على الاكتشاف، حين يدرك أنّ لكلّ ظاهرة يشاهدها سبباً دعا إليها وساهم فيها، وكما سيتساءل عن علاقة النحل بالعسل حين كان يجده دائماً في كلّ مكان يتواجد فيه النحل، وعن علاقة اعتدال المُناخ والطقس بظهور الثمار والنبات، فإنّه سيتساءل عمّن أوجد هذه الأرض وهذا الفضاء وما فيهما من بدائعَ؛ وإنه ليس من الضروري دائماً أن يجيب الإنسان، بل المهمّ أن يتساءل ليندفع للبحث عن جواب، وهو ربّما يجد جواباً ما، واضحاً أو مشوَّشاً، لكنّ الأهمّ أنّه يملك ركيزة معرفية تمكّنه من فهم الجواب لو قيل له في ضوء المرتكزات العقلية البديهية التي تشكّل المعيار لصواب ما سيقال له أو ما سيتوصل إليه، فيصير قادراً على الأخذ بالرأي (الصائب) وترك الرأي (الخاطىء) بمخزونه الفكري الذاتي، ولو بإنارة من الآخر ومساعدته، كالنبيّ مثلاً، إذ ستتداخل مصادر المعرفة هنا عند عزم الإنسان على تبني (عقيدة) وبلورتها ليجيب بها عن تلك التساؤلات وأمثالها، بين معرفة نابعة من بداهات العقل، وبين ما هو من إشارات الوحي، وبين ما هو من مكتسبات الحسّ، وذلك حين يتّجه الوحي والحسّ ليخاطبا العقل ويستثيرا دفائنه الفطرية ويساعداه على أن (يقتنع) هو من ذاته بتلك الإجابات، دون أن تُملى عليه من آخَرَ بالقوّة والإكراه، لأنَّ ثمَّة مرجعيّة فيه هي التي ستتلقّى القناعة وترسّخها في هذا الداخل الإنساني الفريد، ولأنّ الإكراه فعل مادي يقع على شيء مادي، كالجسد، فقد ينقاد الجسد بفعل الإكراه، لكن لا يمكن وقوعه على العقل ولا هو سيؤثّر فيه، فالعقل بآرائه حصين في عمق الذات ومنيع عن أن يتأثّر بالضغوط، فلا يقال لإنسان إنّه آمن بهذا الرأي أو ذاك إلا إذا اقتنع به بكامل إرادته ومحض اختياره، وهو معنى الآية الكريمة التي استخدم فيها (لا) النافية لجنس الإكراه، حين قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] من حيث هو عقيدة يتحدّد بها انتماء الذات وهُويَّتها، ومن حيث إنّ محلّها العقل الذي لن يقبل الإكراه.

إنّ العقيدة هي الخطوة الأهمّ لبلورة رؤية متكاملة للإنسان والمجتمع والكون، تتحدّد من خلالها علاقة الإنسان بالآخر فرداً أو جماعة، وموقع الإنسان في الدنيا، وعلاقة الدنيا بالآخرة، وسنجد فرقاً واضحاً وحاسماً بين إنسان يؤمن بخالق، وبأنَّ لهذا الخالق موقعاً وتأثيراً على حياته، فيرسم مسار حياته وعلاقاته وفقاً لذلك، وبين شخص لا يؤمن بخالق، ويرى أنَّ مداه هو هذه الدنيا وأنّه هو وحدَهُ الفاعل فيه، فيرسم حياته وعلاقاته وفقاً لذلك، وهذا هو ما نشاهده ماثلاً للعيان في تنوّع آراء ونمط عيش العديد من الشعوب بسبب تنوّع عقائدها وأديانها، وليس علينا إلا أن نغوص في أعماقنا فنركز فيها العقيدة التي نختار، ولكن بعد أن نبحث ونتأمل ونقارن و(نعتقد) أنّها الحقّ الذي ينسجم مع تطلعات الإنسان ويساهم في إزالة قلق التساؤل ومجهولية الدور والمصير، ويبلور مساراً قيّماً ويبني حياة فاضلة.

لا تقليد في العقيدة

لقد حفل تاريخ المعرفة الإنسانية بآلاف الفلسفات والعقائد والنّظم، ورغم أنّها تجتمع على حقائقَ معينة فإنّها اختلفت في الكثير من الأفكار، ولو أَخذْتَ الأديان الكبرى وحدَهَا، دون ما تشعب منها من مذاهبَ وطوائفَ، لرأيت التضارب في الأفكار قد وصل إلى حدّ التناقض، فهي بين مؤمن بالله تعالى وملحد به، والمؤمن به بين مجسّد له في صنم وجاعل له أعواناً وشركاء وزوجات وبنين، وبين منزّهٍ له عن ذلك كلّه أو بعضه، ثمّ المنزّهون له بين من يصدّق بهذا النبي فحسب ولا يصدّق بغيره، وبين من يصدّق بالجميع، ثم تجد الناس من هذا الدين يذهبون فيه مذاهبَ شتّى تصل إلى عشرات الفرق، وكلّها يدّعي أنّه يُمثّل الدين الأصيل ويعكس تعاليمه الحقّة، وهكذا الحال نفسه فيما سينبثق عن هذه العقائد من شرائعَ وقوانينَ وحكم وتقاليد.

فهل سيكون كلٌّ على (صواب)، وهل يصحّ منك أن تختار أيّها شئت فتعتقده وتتعبّد به؟

كلاّ، لأنّ ذلك يعني أنّه سيتساوى في الصواب الشيء وضدّه، وسيكون الله واحداً ومتعدداً، وجسداً وغير جسد، وهذا الشخص نبياً وغير نبي، كذلك فسيكون كلّ قول وكلّ فعل صواباً وخطأً في ذات الوقت، ما دام القائل بصوابه مصيباً والقائل بخطأه مصيباً أيضاً!!.

إذن، لا بدّ أن يكون (الحقُّ) في موارد الاختلاف واحداً، وهو ـ حتماً ـ يكمن في هذا الرأي أو ذاك، وعليك اكتشافه بالبحث عنه وتقليب الرأي فيه، فإذا استخدمت المسبار الصحيح، وسلكت المسار المستقيم، ووزنت صحيح الآراء من سقيمها في ميزان الحقّ، فستعرف الحقّ منها والصائبَ، وستختاره بعد أن تعرفه، لأنّه لا قيمة لمعرفة لا يتبعها اختيار وعمل؛ وكما ستصل أنت إليه فإنّ غيرك سيصل إليه أيضاً حين يسلك مسلكك ويزن بميزانك، وذلك الميزان هو ميزان (العقل)، الذي سبق منا القول إنه ـ وحدَهُ ـ الذي يتوافق الناس على (حقائقه) مهما تباعدت مواطنهم واختلفت لغاتهم ومراتبهم في الثقافة والحضارة، وهو ـ وحدَهُ ـ الذي سيوحّد مسالك الناس إلى الحقّ، سيكون المرجع الذي لا مرجع بعده، والحكَمَ الفصلَ الذي لا حكَمَ فوقه نعم، هو وحدَهُ الذي أرشد إليه المنطق، بل وأرشد إليه الدين وأرجع إليه ورضي بحكمه، ونطق القرآن الكريم بالإشادة به وتعظيمه، وهو وحدَهُ الذي سيحسم النزاع ويضع موازين الحقّ[1].

ولكن ماذا نحكم على جحافل الناس الذين أخذوا طريقة الآباء والموجهين في كلّ عصر وزمان، فشبَّت أجيال على العلمانية والإلحاد لأنهم قلدوا بيئتهم التي غلب عليها ذلك، وانقادوا لمقالة آبائهم الذين نشأوا بين ظهرانيهم، وكذا

(١) أنظر في الكتاب بحث: العقل منبع المعارف، ص: ١٤.



فعلت أجيال البوذيين والهندوس والوثنيين واليهود والمسيحيين والمسلمين وغيرهم على مدار التاريخ الإنساني، بل إنّهم ما يزالون حتّى يومنا هذا يفعلون ذلك...؟.

نعم، نحكم على هذه الجماعات بأنّها تسير على غير هدى، بمعنى أنّه يجري عليهم ما سبق أن قلناه، أي: إنّ رأياً واحداً بعينه، وديناً ومذهباً بعينه، هو الحقّ دون ما عداه، فمن قلّد أهل الباطل فهو على باطل حتماً، ليس فقط لأنه (قلّد) بل لأنَّ من قلّده يحمل رأياً خاطئاً، كذلك فإنّ من قلّد أهل الحقّ فهو مُؤاخذ أيضاً، ليس لأنّه على باطل، بل لأنّه عطّل ميزانه وأفرغ داخله من مرتكزاته العقلية، فأغمض عينيه واستنار بعيني غيره، وعطّل عقله واستخدم عقل غيره، فبنى عقيدته على غير أساس مكين، فإذا واجهته شبهة فيها غلبته، وحرفته عن رأيه الذي قلّد فيه وعقيدته التي لم ترتكز على اليقين، إلى شكّ مؤلم أو (يقين) مخالف ورِدّةٍ قبيحة.

وهنا يختلف حالُ من شبَّ على دين الآباء على نحوين:

فتارة يكون مغرقاً في العزلة عن مواطن المدنيّة وما تمور به من علم وثقافة وأفكار، فلا تصله دعوة الأنبياء، ولا مجادلات المتفلسفين، فيلزم طريقة في الاعتقاد والسلوك بعيدة عن الحقّ؛ فهو لا بدّ سيحاسب على قدر ما يمكن أن يصل إليه من حقائقَ بجهوده الذاتية، وبحركة عقله الفطرية، والمتوقع من أمثاله أن يدركوا وجود الله تعالى بصورة من الصور، بحيث تكفيهم ليتعبدوا له بأيّة طريقة يحققون فيها التواصل معه، وأن يدركوا ـ أيضاً ـ عدداً من القيم الأخلاقية الفطرية تتيح لهم الاستمرار في حدّ أدنى من التقاليد التي تصون علاقاتهم الاجتماعية، مثل حسن الصدق والعدل وقبح الكذب والظلم، وما أشبه ذلك، وقد حكم علماؤنا على هؤلاء بأنّهم هم (المستضعفون) الذين غلبتهم ظروفهم فعجزوا عن أن يدركوا أكثر من

ذلك، وهم (مُرْجَوْن) ومؤجّلون لأمر الله تعالى ما دام حسابهم سيكون على قدر عقولهم، حين يكون العقل وحدَهُ هو رسولهم وداعيتهم إلى الخير، وحين لن يعلم إلا الله تعالى مقدار فعالية عقل ذلك الإنساني البدائي على هذا الصعيد، فقد قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البَقَرَة: ٢٨٦]، وقال تعالى ـ أيضاً ـ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطّلاَق: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التّوبَة: ١٠٥ـ١٠٦].

وحينئذ لن يختلف حكم هذه الحالة بين البدائي الذي لم يتعرّف على أيّ دين، وبين من حمل ديناً غير دين الحقّ وانعزل ففاتته معرفة دين الحقّ، وبين من عرف دين الحقّ فَقَصُر عن معرفة المذهب الحقّ من بين مذاهبه العديدة، فإنّ جميعهم ممن لم يخطر بباله أنَّ ثمَّة حقّاً غير ما يراه هو الحقّ بعينه حين عقد قلبه عليه وتمسّك به وتعصّب له وعمل من أجل سيادته وعلوّ شأنه.

وتارة أخرى يكون المقلِّد ممّن عرف ديناً غير دينه وسمع دعوة لطريقة غير طريقته، فأغلق دونها قلبه وأصمَّ عن سماعها أذنه، مكتفياً بما هو عليه من مألوف الأفكار والأعمال، إصراراً منه على ما ألفه، دون أن يُجهد في الإصغاء نفسَه، ولا في التفكّر والتدبّر عقلَه، فتراه يواجه الرأي الآخر بالإعراض، وقد يستنفر نفسه للمواجهة والدفاع خوفاً من الجديد على مألوفه أو على ما يجرّه له ذلك المألوف من مكاسب بسبب موقعه في الدين أو في الدنيا، وهو في كلتا الحالتين إمّا أنّه لم يفكّر أبداً فظلّ على جهله، أو أنّه فكر وعرف الحقّ فكابر وجاهر بالإنكار حرصاً منه على ما في يده، فهو في كلتا حالتيه مُدان، لأنَّ العقل يدعوه إلى المعرفة والنظر والبحث عن الحقّ، فإذا أعرض عن سماع الحقّ ورضي بجهله، فقد

اختار أن يبقى على تخلّفه وباطله، فهو مؤاخذ على تقصيره ومستحقٌّ للعقاب.

وأسوأ منه حالاً هو ذلك الذي عرف الحقّ فلم يتبعه ازدراءً لأهله وتكبّراً عليهم وحرصاً منه على مكاسبه الدنيوية في المال والجاه وخوفاً من أن يخسرها إنّ فارق الباطل الذي هو عليه، بل إنّه قد يشتد في إنكاره للحقّ فيحاربه ويصدّ عنه، إغراقاً منه في الحرص على تلك المغانم، وقد ذكر القرآن أحوال هؤلاء في كثير من آياته البينات، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٦]، وقال تعالى حكاية عن نوح وقومه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نُوح: ٥-٧]، ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نُوح: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفَال: ٣٦].

إنَّ التقليد في العقيدة مرفوض حين تغلق قلبك على ما يُلقى عليك من قول، لأنَّ العاقل هو الذي يحسن الإصغاء إلى ما يلقى عليه، نزوعاً منه نحو الكمال ورغبة منه في الحقّ، وهو كلّما سمع رأياً آخرَ فإنَّ عليه أن يتَّهم نفسه ويشكّ فيما عنده، فلعل ما يعرض عليه خير مما هو عليه، وهو دائماً ينتظر البرهان والقول الفصل، فإنّ رَدَّ برهان خصمه وأحسن الدفاع عن عقيدته فذلك هو المطلوب الذي سيعذر به عند الله تعالى، وإن غلبه الخصم برأيه وبرهانه وانكشف له أنه الحق واضحاً لا لَبْس فيه، لم يجد في نفسه غضاضة ولا ضيقاً في أن يذعن للحقّ ويؤمن به، يتساوى في ذلك المسلم الذي شبّ في بيئة مسلمة وغير المسلم من أتباع سائر الملل والنِّحل.

هكذا هي طريقة القرآن الكريم في حوار الآخرين، وهكذا هي طريقة الدعاة الكبار الذين اختارهم الله تعالى أنبياء ورسلاً للعالمين حين أمرهم تعالى قائلاً: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: ١٢٥]، وحين أمرهم بأن يجعلوا أنفسهم بمساواة الخصم في البحث عن الحقّ، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وهي الطريقة التي التزمها القرآن الكريم في عرضه الأمين والدقيق لأقوال الكافرين والمشركين به تعالى إلى جانب أقوال أهل الإيمان وردودهم على خصومهم، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وذلك في أدب إلهي رفيع يؤكّد على احترام العقيدة والعقل.

وهذه الطريقة المتوافقة مع الفطرة وحكم العقل هي التي دعت علماءنا وأرشدتهم إلى أن يحكموا بحزم بأنَّ على المكلف أن لا يكتفي بما شبَّ عليه من إيمان عابر وتقليدي بدينه ومذهبه رغم أنَّ الإسلام هو دين الحقّ، وبأنّ عليه أن يؤسس إيمانه به على البرهان العقلي المُقْنِع، فيقارن بين عقيدة آبائه التي عايشها وبين عقيدة الآخرين، ويتفكّر في أركان هذه وأدلتها وأركان تلك وأدلتها، ثمَّ بعد أن يتفكّر ويناقش ويمحِّص، يختار الفكرة التي قهره دليلها وقبل عقلُه أصولَها، لتصير عقيدته هو وخياره هو، لا عقيدة أبيه أو مجتمعه وخيارهما.

عقيدة الحد الأدنى

إنَّ ما سبق قوله لا يقتضي أن يخوض كلّ إنسان غمار مختلف العلوم، ولا أن يحيط بشتى العقائد والفلسفات، ولا أن يبقى عمره يبحث عن الحقّ وقد لا يصل إليه مهما عُمّر، فإنَّ ذلك شأن المتخصصين من أهل العلم، حيث تتراكم المعرفة جيلاً بعد جيل، فيأخذ العالم مجاله في التعرّف على مختلف الديانات

والفلسفات ويقدّم خلاصة أفكارها وبراهينها؛ وهي مرحلة من البحث عن الحقّ، ومرتبة في خدمة الثقافة المعرفية للإنسان، لا بدَّ من إنجازها في مجتمع كلّ عقيدة، ولدى كلّ شعب يعتزّ بثقافته ويريد أن يصونها ويقدّمها للآخر، من حيث هي خصوصيته وهُويته، ومن حيث إنَّ هؤلاء العلماء هم (مرجعيّة) عامّة الناس المؤتمنون على تلك الهويـة والخصوصيـة، والذين عناهم الله تعالى بقوله الكريم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: ٤٣-٤٤].

أمّا عامّة النَّاس فلا بدَّ لهم من أن يعرفوا (الحدّ الأدنى) الذي يشكل لبّ العقيدة وأهم مسائلها، ويؤمنوا بها بالدليل والبرهان، وذلك بالكيفية والكمية التي تتناسب مع الفطرة الإنسانية، وتشعر الداخل الإنساني بالطمأنينة، وتنيره برؤية واضحة، وحينئذٍ يكفيه من الدليل على وجود الله تعالى مقالة ذلك البدوي المغرقة في البساطة حين سُئل عن وجود الصانع الجليل، فقال: (البعرة تدلّ على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا يدلان على اللطيف الخبير)، ويكفيه من الدليل على وحدانيته تعالى قوله الكريم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقول عليٍّ(ع) لولده: «**واعلمْ يا بنيّ أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته**»[١]، وهكذا الشأن في النبوّة والمعاد وغيرهما من أمهات مسائل الاعتقاد حين يبنى الإيمان بها على مثل تلك البراهين الناصعة في وضوحها، والبسيطة في مفهومها، لا سيّما وأنَّ معظم الناس ليس لهم نصيب وافر من العلم، بل إنَّ الكثيرين منهم أهل ريف وبداوة، وهم الذين خاطبهم الأنبياء والمصلحون،

(١) لبيب بيضون، تصنيف نهج البلاغة، ص: ٧٨.

فكانوا أكثر الناس وعياً وأسرعهم استجابة، لما في فطرتهم من نقاء، ولما في نفوسهم من طيبة، ورغم بساطة هذه الأدلة، وضآلة المقدار الذي سيتعرّف عليه العاميّ من الناس، فإنَّ عقيدته في حدّها الأدنى ذاك ستكون على قدر من الرسوخ الذي لا يقاربه شكّ ولا تعتريه شبهة، وستتيح له أن يرفض الديانات القائمة على الإلحاد أو على الوثنية، كما وأنَّها ستسمح له بالاعتماد على العالِم المتبحِّر لأخذ ما يصعب عليه الإحاطة به من قضايا العقيدة، وذلك حين يرى ذلك العاميُّ أنَّ ذلك العالم يقف نفس الموقف ويعتقد نفس العقائد، فيكون العالم في سعة ثقافته كالامتداد له والقائم مقامه في أمر لن يتمكّن كلّ فرد من أن يصل فيه إلى مداه، فلا يؤخذ على هذا العاميّ حينئذٍ أنّه مقلّد في العقيدة، لأنّه قد آمن بالحدّ الأدنى عن قناعة نابعة من أعماق النفس، واستهدى ببداهات راسخة في الفطرة، وما كان اتباعه لذلك العالم، وأخذه لتفاصيل عقيدته منه، إلا بعد قناعته الذاتية بأصولها، وعجزه عن أن يحيط بتفاصيلها.

العقيدة بين الوحي والعقل

لا ريب في أنَّ للوحي دوراً مهمّاً في إرشاد العقل والتناغم معه، وذلك حين يحمل النبيّ في رأس تعاليمه السماويّة أصول العقائد الحقة التي يستقيها من معينها الصافي ويأخذها من مصدرها المعصوم، من الله الذي هو سيّد العقلاء ورئيسهم.

فإن قلت: إنَّ الآخذ عن النبيّ مقلّد له، لأنّ لكلّ أمّة مَنْ هو في نظرها نبيّ، وقد أخذ النّاس منهم عقائد وديانات وشرائع مختلفة، فإنْ صحّ أن يأخذ المسلم من نبيّه عقيدته التي سيتناغم معها، فإنّه يصحّ ـ حينئذٍ ـ للبوذيّ أن يأخذ عقيدته ممّن يعتقده نبيّه الذي سيتناغم معه، وهكذا اليهودي والمسيحي.

قلنا: نعم إنَّ الآخذ عن النبيّ مقلّد إن كان ذلك الإنسان قد عطّل فكره حين اتبعه، أما إن كان قد آمن به على هدي من عقله، وعلى ركيزة من الإيمان بالله تعالى، وكانت تعاليم النبيّ متناغمة مع الفطرة ومؤكّدة لها ودالة عليها، فإنَّ الوحي هنا سيكون مرشداً إلى تلك الحقائق التي حين نلتفت إليها سنعتقدها بما في داخلنا من مرتكزات عقلية، وسيكون دوره دور المساعد، لا دور المملّي والمعرّف بأفكار غريبة ومرتجلة، ليس لها سند ولا قيمة سوى أنّها قول ذلك (النبي).

إضافة إلى ذلك فإنَّ للنبيِّ علاماتٍ يُعَرف بها، فليس كلّ من رآه قومه نبياً فهو نبي فعلاً، كما وأنَّه ليس كلّ ما يتحدث به الناس عن النبي الصادق من قول أو فعل سيكون قوله حقّاً وفعله صدقاً، فما أكثر ما زُوِّرتْ أقوالٌ وأفعالٌ عن أنبياءَ هُمْ منها براء، وحين نتيقّن من نبوته ونصدّق أنّه يحكي عن السماء، فإنَّنا سنفتح له القلوب ليلقيَ فيها تعاليم السماء، لأنَّ ما هو من العقيدة من تعاليمه سيتوافق مع العقل، وما هو من الشريعة سيكون منسجماً مع طبيعة الإنسان والحياة، وهو حين إذ ينطق بالوحي عن الله تعالى سيكون سند العالِم فيما تبحّر فيه حين يجتمع عنده علم المعقول والمنقول، وسيكون سند العاميّ حين يستند إلى ركن وثيق معصوم ويسلّم إليه تسليماً بعد أن آمن به وصدّقه، وحينئذٍ لا غرو أن يؤمن بنبيِّنا محمّد(ص) ذلك المثقف المتحضر، وذلك البدويّ القادم من جاهلية الصحراء وقتامها، فكلاهما قد وجد في دعوة محمد(ص) ما هو مشترك عندهما وحاضر في داخلهما ببساطته ووضوحه، رغم اختلافهما في الثقافة والمعرفة، ألا وهو أوّليّات العقل البديهية وفِطريّات المعرفة السليمة، حين استثارها الوحي في نفسيهما، ونطق بها لسانهما إيماناً وتصديقاً.

العقيدة الإسلامية

تشتمل العقيدة الإسلامية التي حملها نبيّنا الأعظم محمّد بن عبد الله(ص)، وبلّغها للعالمين مع ما أوحى الله تعالى به إليه من شرائع وتعاليم، على الأركان التالية:

الركن الأول: الإيمان بأنَّ الله تعالى واحد لا شريك له ولا شبيه، كان ولم يزل ويبقى إلى الأبد، متنزّه عن عوارض الجسمية، له الأسماء الحسنى وله صفات الكمال بأعلى مراتبها، وهي أصيلة في ذاته بل هي نفس ذاته، فهو خالق كلّ شيء ومبدعه من العدم، وخالق الإنسان ومدبّره، لطيف بما خلق جواد كريم، حيّ قيّوم، غنيّ قاهر، وكلّ ما في هذا الوجود مفتقر إليه في وجوده وبقائه.

الركن الثاني: الإيمان بأنَّ الله تعالى بلطفه قد واتر بعثة الأنبياء إلى البشر، رسلاً مختارين من بين الناس، ومعصومين من الخطأ والنسيان والذنوب، ليبلّغوا وحي الله تعالى وكلمته وأوامره ونواهيه، بتكليم مباشر منه تعالى أو من خلال مَلَك يحمل وحيه إليه، أو بغيرهما من الطرق، وقد رافقوا البشرية منذ بداية وجودها، ورافقوا أجيالها، لم تخلُ منهم أمّة، وقد فضّل الله تعالى بينهم لاختلاف أدوارهم، وهم عدد كبير، ولولا أنّ القرآن الكريم قد ذكر بعضهم ما كنّا قد عرفنا إلا القليل النادر، وقد اشتهر منهم من سُمّوا بـ(أولي العزم)، الذين هم أصحاب الرسالات الكبرى التي أمروا بتبليغها للناس كافة، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبيّنا محمّد(ص)، والذين نزلت عليهم أهمّ الكتب السماوية: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، بالإضافة إلى ما سمّاه القرآن الكريم (صحف) إبراهيم(ع). قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٨٤]، كما وأن خاتمهم وأعظمهم

شأناً هو نبيّنا محمّد(ص) الذي بعث في مكة المكرّمة سنة (٦١٠) للميلاد، وأنّه هو النبيّ المبعوث برسالة الإسلام، وأنّ القرآن الكريم معجزته الخالدة دليل صدقه ووحي الله الأكبر، وأنّ رسالته هي الرسالة الخاتمة التي لا يُقبل من أحد إلاّ الإيمان بها ولا ينجو إلا باتباعها، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصَّف: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عِمرَان: ٨١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]

كذلك فإنَّ من جملة فروع هذا الركن: الاعتقاد بأنَّ لكلِّ نبيّ وصيّاً يقوم مقامه بعد وفاته، فيحفظ دينه، ويقود الناس على ضوء ذلك الدين لإقامة العدل ونشر الفضيلة، ورغم أنّ المسلمين قد اختلفوا على شخص ذلك الوصيّ فإنّ الإيمان بضرورة الإمامة أو الخلافة من حيث هي رئاسة دينية ودنيوية هي ممّا أجمع عليه المسلمون بمذاهبهم كافة، وقد أصرَّ الشيعة على أنّ الإمامة لا تكون إلا بالنّص على الإمام من الله تعالى، وأنّه لا بدّ أن يكون معصوماً، وأنّ الذين نُصَّ عليهم هم إثنا عشر إماماً، أوّلهم عليٌّ بنُ أبي طالب ثمَّ ولده الحسن ثم أخوه الحسين، ثمَّ عليّ بن الحسين، ومحمّد بن عليّ، وجعفر بن محمّد، وموسى بن جعفر وعليّ بن موسى ومحمّد بن علي وعلي بن محمّد والحسن بن عليّ والحجة المهدي الذي ما يزال حيّاً منذ ولد سنة (٢٥٥هـ)، لكنّه غاب عن الأنظار بعد توليه الإمامة سنة (٢٦٠هـ) وما يزال غائباً إلى أن يأذن الله تعالى له بالظهور ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تملأ ظلماً وجوراً.

الركن الثالث: الإيمان بأنَّ للخلائق يوماً يرجعون فيه إلى الله تعالى حين تقوم الساعة، فيجتمعون أمامه تعالى يوم القيامة ليحاسبهم على ما عملوا، فيجزي المسيء على إساءته ويثيب المحسن على إحسانه، فيدخلهم الجنّة أو النار جزاءً بما كانوا يعملون، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ * وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ * وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٨ ـ ٧٥].

وهذه الأركان الثلاثة هي التي يصير بها الإنسان مسلماً، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وأنّ من أنكرها بعد الإيمان يعتبر مرتداً عن الإسلام، وأنّ على سائر الناس مهما كانت عقائدهم أن يُصغوا إلى دعوة الإسلام ويتفكّروا في عقائده وهديه في مختلف المجالات، ليؤمنوا به ويتبعوه، سواء في ذلك من هو على دين نبيّ سابق من أديان أهل الكتاب: اليهودية والمجوسية والنصرانية، أو من هو على ديانة وثنية يُقدّس أتباعُها أصناماً لا تنفع ولا تضرّ.

أهل الكتاب وموقفنا منهم

لا تختلف العقيدة الحقّة بين دين سماوي ودين سماوي آخر، فما دام العقل بمدركاته الفطرية، والوحي الصادق المنزل من الله تعالى، هما المرشدان إليها والدالان عليها، فإنّها ستكون واحدة في جيمع الأزمان وعند جميع بني البشر، حيث لن يكون ثمَّة إلهٌ إلا الله تعالى، وحيث لن يأتيَ نبيّ إلا من عنده، وسوف لن يرجع الخلق يوم القيامة إلا إليه، وعلى هذا جرى الزمان وبهذا نطق الأنبياء، وهو الحقّ الذي بيّنه القرآن الكريم وكشف عنه، وهو ـ أيضاً ـ ما نطقت به الكتب السماوية التي نزل بها الوحي على أنبياء الأمم السابقة أو كلّمهم الله تعالى بها تكليماً، رغم ما في التوراة والإنجيل من تحريف في بعض تفاصيل العقيدة حين عبثت بها الأهواء وشوَّهها الجهل والمطامع بعد أن كانت نقيّة صادقة.

ورغم أنَّ القرآن الكريم قد تحدّث عن النبوّات منذ آدم عليه السلام فإنّه قد اقتصر في حديثه عن مرحلة ما قبل موسى عليه السلام على ذكر إجمالي وخطوط عامة لدعوات الأنبياء، يدور معظمها حول عقيدة التوحيد وصفات الله تعالى وبعثة الأنبياء والآخرة ونحو ذلك، ممّا كان صرخة في وجه الوثنية التي كانت ما تكاد تتهاوى أصنامها في موقع أمام جهاد الأنبياء وتضحيات الموحدين من أتباعهم إلا تراها تبرز في موقع آخر، فيهبُّ نبيّ آخر لمواجهتها، وذلك بالإضافة إلى أنَّ القرآن قد ذكر عدداً من التشريعات والقيم التي دعا إليها الأنبياء(ع) أتباعَهم في كلّ عصر وزمان، مثل الحثّ على الصلاة والزكاة والصوم والعدل واحترام حقوق الآخرين وطلب العلم والتفكّر في الحقائق، ومواجهة الظلم والتمرّد على الطغاة والتحرّر من جبروتهم، حيث مضت القرون على هذا النحو الذي يبدو أنّه ـ رغم اقتصار القرآن على ذكر هذا المقدار من عقائده وقيمه ـ كان يضجّ بحركة النبوّة ونشاطها، وبحيوية المواجهة وصخبها وبشمولية التعاليم

الإلهية وحضورها، ولولا ما ذكره القرآن الكريم عنها لما أمكننا معرفة ملامح تلك الفترة، ولا رسم صورة صحيحة لما كان يجري، لأنّ ما ذُكر عنها في (العهد القديم) الذي بين أيدينا ليس دقيقاً ولا نقياً في العديد من محطاته.

أمّا منذ موسى(ع) فإنَّ القرآن الكريم يتحدّث عن اليهودية بالتفصيل بوصفها ديانة كبرى، وعن شعب آمن بها، وعن دولة قامت على أساسها، وعن أنبياء وأوصياء توالوا على رعايتها، من حيث إنّها التجربة الأهمّ والأكبر في عصر ما بعد إبراهيم(ع) وإلى حين ظهور النبيّ محمّد(ص) وبعثته بالإسلام، حيث تعتبر المسيحية امتداداً لليهودية وأشبه بحركة إصلاحية فيها.

وحيث إنَّ مصدر الديانات السماوية جميعاً هو الله تعالى فإنّنا نعتقد أنَّ كلَّ نبيّ سابق قد كان يبشر المؤمنين بالنبيِّ اللاحق له وبالدين الذي سيبلّغه، ونعتقد بأنه كما بشّر يوسف(ع) بموسى، وظلّت أجيال الموحدين من بني إسرائيل ينتظرون خروجه، فإنّ موسى(ع) قد بشَّر بعيسى، وظلَّ أتباع الديانة اليهودية ينتظرونه جيلاً بعد جيل، كذلك فإنَّ عيسى(ع) قد بشَّر بمحمّد(ص)؛ ونظراً إلى أنَّ البشارة بالنبيّ اللاحق هي جزء من عقيدة كلّ نبيّ سابق، فإنَّ النبيّ اللاحق حين يبعث فإنّه كان يتوقّع أن يؤمن به من بعث إليهم، وكان يذكّرهم بذلك ويحثّهم على الإيمان به من حيث إنّه تصديق للوعد الذي هو موجود عند رهبانهم ومدوّن في كتبهم، ورغم أنّه يُتوقع أن يكذّبه قسم منهم ويكفُرون به فقد كان يصدّقه آخرون ويؤمنون به.

وهذا هو حال نبيّنا محمّد(ص)، فإنّنا نعتقد ـ حسب صريح القرآن ـ أنَّ عيسى قد بشّر بمحمّد(ص) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصَّف: ٦] ، بل إنَّ القرآن الكريم يصرّح بأنّ الله تعالى قد أخذ عهداً وإقراراً من جميع من سبق نبينا محمداً(ص) من الرسل

بأن ينصروه ويؤمنوا به، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عِمرَان: ٨١] ، ونعتقد ـ وفقاً لذلك ـ أنّه قد كان يجب على اليهود أن يؤمنوا بعيسى ويعتنقوا الديانة المسيحية، وأنّه يجب على كلّ من اليهود والمسيحيين أن يؤمنوا بنبينا محمّد(ص) ويتركوا ما هم عليه من عقائد وشرائع مخالفة للإسلام ويلتزموا بالإسلام عقيدة وشريعة، وحيث إنّهم لم يؤمنوا به ولا بدينه الذي جاء به فهم داخلون تحت صنف (الكفار) رغم إيمانهم بالله تعالى واليوم الآخر وبالأنبياء السابقين وكتبهم، قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ [البَيّنَة: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البَيّنَة: ٦] ، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [المائدة: ١٧]، وذلك لأننا لو توقفنا عند عقيدتهم بالله تعالى بحسب ما هو متداول عندهم في زماننا، فإننا نلاحظ عليها ما يلي:

أولاً: إنَّ كلتا الديانتين اليهودية والمسيحية تؤمنان بإله واحد لا شريك له، لكنّهما لا تضفيان عليه القداسة المناسبة ولا التنزيه التام، فإنّ المسيحية منهما بالخصوص تجيز أن يكون الله جسماً، وترى أنّه قد تجسد بصورة المسيح ونزل إلى الأرض ليدعوَ لنفسه وللعقائد المسيحية، وأنَّ الله بصورته البشرية هو الذي اختار أن يُصلب لتكون آلام صلبه فداءً لأخطاء البشر، وأنّه بعد صلبه رقى إلى محلّه كإله على العالم.

وهذا أمر نرفضه ونعتبره انحرافاً عن عقيدة الوحدانية الخالصة، ونعتقد أنَّ عيسى هو عبد الله ورسوله وليس له من صفات الإله شيء.

ثانياً: إنَّ كلتا الديانتين تعتبران الكتاب المتداول عندهم تحت اسم (الكتاب المقدس)، والمشتمل على التوراة تحت اسم (العهد القديم) وعلى الإنجيل تحت اسم (العهد الجديد)، تعتبرانه مُنزّلاً من عند الله تعالى، ومشتملاً على وحيه، وأنَّ أتباعهما ملتزمون بالعمل بما فيهما على أساس أنّه أمر الله وتوجيهه لهم.

وهذا الأمر ـ أيضاً ـ نرفضه، ونعتبر أنَّ الله تعالى أنزل كتاباً على موسى(ع) باسم (التوراة)، وكتاباً على عيسى(ع) باسم (الإنجيل)، لكنَّ يد التحريف والتزوير قد عبثت بهما، فلا يوثق بأنَّ جميع ما فيهما وحي من الله تعالى، وخاصة ما يقال له (العهد الجديد) الذي كُتب بصيغة أنّه سيرة وأقوال المسيح(ع)، لا كلام الله تعالى المنزل عليه، والذي كتبه التلامذة بعد وفاة المسيح بمدة من الزمن، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المَائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٧٩].

ثالثاً: رغم أنَّ الديانة اليهودية تتميّز بشريعة شاملة فإنَّنا نعتقد أنَّها قد نُسخت بالشريعة الإسلامية التي يجب عليهم أن يؤمنوا بها ويلتزموها، وحيث إنّنا نعتقد أنّه كان من المفترض بالمسيحيين قبل الإسلام أن يلتزموا الشريعة اليهودية عدا ما نُسخ منها على لسان عيسى(ع)، فإننا نرى أنَّ المسيحيين ما يزالون حتّى

اليوم بدون شريعة يلتزمونها، إذ إنهم ليس لهم في دينهم شريعة منزلة، ولا هم قد التزموا بالشريعة اليهودية، لذا فإنهم يأخذون تشريعاتهم المحدودة من أوامر رهبانهم الكبار ويتداولونها كشريعة؛ ولكننا نعتقد أنّهم مخطئون في ذلك وأنّ عليهم أن يؤمنوا بالإسلام ويلتزموا شريعته.

وفقاً لهذه الملاحظات فإنَّ موقف الإسلام منهم نعرضه كما يلي:

فمن الناحية السياسية: قد مدّ لهم يد المسالمة، فإن كانوا دولة لها كيانها فقد رضي بمعاهدتها والتعايش معها بسلام وفقاً لبنود المعاهدة؛ وإن كانوا رعايا في دولة الإسلام فقد قبلهم متميزين بتقاليدهم وعقيدتهم متعهداً بحمايتهم أمنياً وكفالتهم اجتماعياً مقابل ضريبة أسماها (جزية) تشبه ما هو مطلوب من المسلم تحت اسم الزكاة والخمس، وسمّاهم (أهل الذمة) المأخوذة من أنهم في (ذمّة) المسلمين، أي: في عهدتهم ومسؤوليتهم.

لكنّهم إذا اعتدوا على المسلمين وأظهروا عداوتهم بأعمال عدوانية مختلفة، وحاربهم المسلمون وانتصروا عليهم، فإنَّ لوليّ الأمر أن يفرض شروطه عليهم بالنحو المناسب لمصالح الإسلام والمسلمين، ومن ذلك إمكان العفو عنهم وقبولهم رعايا ذمّيين في ظلّ الحكم الإسلامي، أو ترحيلهم، أو قتل المحاربين منهم، أو غير ذلك، لكنّه في مطلق الأحوال لن يُجبرَهم على الإسلام إلا أن يختاره بعضهم أو جميعهم كخيار سلامة ولو ظاهرياً، أو عن قناعة راسخة سرّعتْ بها هزيمتهم.

ومن الناحية الاجتماعية: قد سمح بوجودهم في مجتمعه وبالاختلاط بهم، وبالتعامل معهم بألوان المعاملات، ولكنّه احتاط من التزوّج منهم، فحرَّم تزويجهم من النساء المسلمات، واختلف الفقهاء في جواز التزوج من نسائهم، وأجمع فقهاء الشيعة على جواز التزوّج منهم متعة، وذهب معظمهم إلى عدم

جواز التزوّج منهم دواماً، وذلك في قبال القليل الذين قالوا بجواز التزوّج منهم، ويبدو أنَّ السبب في ذلك هو حرص الإسلام على ضرورة توفير الانسجام بين الزوجين، وأنَّهما حين يختلفان في الدين لن يتوافر الحدّ الأدنى من الانسجام المطلوب من أجل قيام أسرة سعيدة مستقرة لها مرجعية واحدة تستهدي تعاليمها وتحتكم إليها.

هذا، ورغم أنَّه من الناحية العقائدية قد اعتبرهم كفّاراً، فإنّه ميّزهم عن المشركين باسم تكريميّ هو (أهل الكتاب)، ودعاهم إلى الحوار بمحبة، وإلى التعاون على تحقيق العدالة، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العَنكبوت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عِمرَان: ٦٤]، وجعلهم في موقع أفضل من المشركين وعبدة الأصنام، وذلك لوضوح الفارق الكبير بينهما، ووضوح مدى قرب أهل الكتاب في عقيدتهم إلى الإسلام من المشركين.

اليهود أشدّ عداوة

تعتبر الديانة اليهودية ديانة عالمية وكاملة وواجبة الاتباع منذ بعثة موسى(ع) بها ونهوضه بتبعاتها وتَنَزُّلِ التوراة عليه فيها نور وهدى وتفصيل كلّ شيء، ثمَّ حين استمرّت من خلال المسيح(ع)، بنفس ما كانت عليه من عقائد وشرائع وأهداف، سوى أنّ الله تعالى قد أمره(ع) بأن يُحِلّ لهم بعض ما حرم عليهم تخفيفاً عنهم، وذلك إلى أن انتهى دورها بظهور الإسلام والطلب من أتباعها

اليهود، وكذا ممن انفصلوا عنها وصاروا نصارى، بأن ينضموا إلى الدين الجديد ويؤمنوا بخاتم الأنبياء محمد(ص).

وقد رعى الله سبحانه وتعالى الديانة اليهودية بوصفها التجربة الدينية الرئيسة والشاملة في مرحلة ما بعد إبراهيم(ع) التي شهدت قيام دول كبرى وحضارات ضخمة، والتي برزت فيها موجة من الوثنية مُدعّمة بجبروت وقوة تلك الدول والحضارات، فكانت الديانة اليهودية كلمة الله تعالى الداعية إلى الوحدانية بالكلمة وبالسيف، وكان فيها على مدى تاريخها أنبياء عظام وأوصياء كبار وملوك أولو قوّة يقودون أتباعها ويحققون أهدافها وينشرون تعاليمها، فبلغت في أيام النبي سليمان(ع) ذروة قوّتها بما سخّر الله تعالى له من وسائل القوّة والسؤدد غير العادية، كالجنّ والريح، ممّا مكّنه من أن يُخضع مَنْ حوله من الملوك والدول لحكم الله تعالى وشريعته، كما حكاه عنه القرآن الكريم فذكر قصته مع بلقيس نموذجاً لما كان عليه من نفوذ وسلطان.

ونظراً لأهمية تجربة الديانة اليهودية وما جرى خلال تاريخها من عبر ودروس، فإنَّ القرآن الكريم قد سلّط الضوء بقوّة على جميع جوانبها، وبخاصة في كيفية تعاطي أتباعها مع أنبيائهم ومدى التزامهم بأوامرهم وتوجيهاتهم، وذلك كي يستفيد منها المسلمون فلا يقعون في مثلها مع نبيّهم الأعظم محمّد(ص)، وينطلقون بنحو أفضل لتحقيق أهداف الإسلام، ولذا فإنَّ القرآن الكريم قد أبرز ضَعف الالتزام العقائدي عند اليهود وتأثّرهم بالوثنية وإدخالهم بعض أفكارها في ديانتهم، وأبرز تعاليهم وكبرياءهم واعتقادهم بأنّهم شعب الله المختار والمدلل الذي يجب أن يخضع لهم الناس ويكونوا عبيداً، وركّز على حرصهم على الرئاسة والجاه حيث صاروا يقتلون النبيين الذين كانوا يبعثون لهدايتهم وإصلاحهم فيقتلهم أولئك الرؤساء حرصاً على نفوذهم وسلطانهم؛ وفضح

القرآن الكريم ـ أيضاً ـ تلاعبهم بتعاليم التوراة ونصوصها ومتاجرتهم بفتاوى الشريعة، فصاروا يكتمون أموراً ويحرِّفون نصوصاً من أجل أهداف دنيوية دنيئة، وجميع هذه الأمور قد أفاض القرآن الكريم في ذكرها بنحو لا تكاد تخلو منه سورة، وبنحو يصعب الاستشهاد عليها جميعها، وسنكتفي بذكر بعضها، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المَائدة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المَائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المَائدة: ٤٦].

فلما ظهر نبيّنا محمّد(ص) كان اليهود في زمانه قلّة محدودة الوجود، ومن الطبيعي أن يكون خطابه(ص) ودعوته موجهة لليهود المتواجدين في الجزيرة العربية، وبالذات في المدينة المنوّرة، وكان هؤلاء اليهود هم البقية التي ظلّت تحمل هذا الاسم بعد أن تحوّل قسم كبير إلى المسيحية بعد ظهور عيسى(ع) فيهم ودعوته لهم، وقد تمرَّد معظم اليهود على دعوة نبيِّنا محمّد(ص) وأبَوا أن يصدّقوه وأن يقرّوا بأنّه مذكور عندهم في التوراة بأوصافه، وقد اشتدوا في عداوته(ص) فتآمروا مع أعدائه من المشركين وكادوا له ولأتباعه المسلمين، وحدث الصراع معهم دون النصارى على خطّ موازٍ لصراع المسلمين مع المشركين، ففي حين سالم النصارى ووفوا بعهودهم للنبي(ص)، فإنَّ اليهود قد

نقضوا العهود وحاربوا رسول الله فحاربهم وكسر شوكتهم وشرَّدهم، فكان أن خلّد الله تعالى في كتابه الكريم هذا التوتر في العلاقة مع اليهود وقارنه بالعلاقة مع النصارى فقال عزّ من قائل: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المَائدة: ٨٢]، حيث تسجّل هذه الآية الكريمة وقفة مهمّة ومقارنة معجزة وحكيمة، إذ إنّ كلّاً من اليهود والنصارى أهل كتاب وأتباع دين سماوي توحيدي، إذن فلماذا أفرط اليهود في العداوة للمسلمين وسالمهم النصارى؟

وهو سؤال مهم، وقد يكون للجواب عليه علاقة بفهم طبيعة الصراع المستقبلي مع اليهود وإدراك أبعاده وآثاره الخطيرة التي تجعله جديراً بالاهتمام، وقد بدا لي أنَّ سبب ذلك يرجع إلى أنَّ الإسلام لمّا كان ديانة عالمية شاملة، وأنّه يتوسل إلى البقاء بالكلمة وبالسيف، وأنّه بصدد إقامة دولة يراد بها مواجهة الباطل والفجور ونشر الفضيلة وتحقيق العدالة، فإنَّ قيام الإسلام وتنامي قوّته سيكون التهديد المباشر لمشروع الديانة اليهوديّة الشامل والمشابه للإسلام، لذا فإنّهم إن واجهوه يرجون المحافظة على بقيّة أمل عندهم في أن يستقووا يوماً بعد يوم ويقيموا دولة يهودية يحكمون من خلالها ويبسطون سلطانهم، والمانع الوحيد الذي سيعترض طريقهم هو الإسلام بما يعلمونه فيه من صدق وحيوية ونقاء، لذا فإنّنا نلاحظ أنّ الآية الكريمة فسّرت سبب مودّة النصارى للمسلمين أنّ النصارى لا يستكبرون، أي: ليس عندهم مشروع دولة وسلطة، بل هم يهتمون بالعبادة وبالقيم، فلا يجدون في الإسلام تهديداً لهم، فلم يواجهوه، في حين يعيش اليهود ميراث الانحراف التاريخي المقرون بتكذيبهم للنبي(ص) والرغبة في استعادة الأمجاد، وهم قد كانوا يظنّون أنَّ محمّداً(ص) حين يبعث سينطق باسمهم

وسينقاد لهم وسيحققون طموحاتهم عن طريقة، لكنّه حين أعلن دعوته خيّب آمالهم، فانقبلوا وأعلنوا العداوة واشتدوا بها، وقد سجّل لهم القرآن الكريم هذا الموقف المستغرب، فقال تعالى في سياق حديثه عن اليهود: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البَقَرَة: ٨٩] وها هم بعد أربعة عشر قرناً يحققون ما خافوا رسول الله منه وما رجوا تحقيقه حينذاك، فقامت دولة (إسرائيل) ليتمثل فيها كلّ الانحراف اليهودي وكلّ المطامع العنصرية، وصارت تكيد للمسلمين، ولكن لا بدّ أن تدور الدائرة عليهم بما بغوا وستكون العاقبة للمؤمنين.

المشركون وموقفنا منهم

(الشرك) مصطلح يراد به كلّ عقيدة ترتكز على الإيمان بخالق متعدد الذات لهذا الوجود، أو واحد في ذاته لكنّه يستعين بشركاء له في التدبير لا يستغني عنهم، أو هو واحد في ذاته لكنّ النّاس يجعلون له وسطاء يعبدونهم دونه ليقرّبوهم إليه، إضافة إلى إنكار النبوّات ويوم المعاد، وهو عنوان يندرج تحته ديانات كثيرة، مثل المجوسية والهندوسية، ووثنيّات حضارة الفراعنة واليونان والرومان والبابليين والسومريين وغيرهم.

وقد عرض القرآن الكريم للشرك وذكر بعض أنواعه التي يجمعها أنّها تجافي العقل وتصادم بديهيات الفطرة وتشتّت تَوجُّه النفس فلا تستقرّ في علاقتها بمعبود واحد واضح، وتُشَرْذِم المجتمعات حين يصير كلّ مجتمع متميّزاً عن الآخر بإله وتقاليد ونظم ونمط حياة، وتُقلّص الآفاق الرحبة حين تحصرها بصنم ماثل تحت النظر يضغط في محدوديته وضعفه وشكله ورمزه على العقل والمشاعر ويبقيها

في إساره؛ وإنّه لتبهرك الصور العديدة التي يُبرز فيها القرآن الكريم ضحالة الوثنية ومفارقاتها المضحكة وسخافاتها المثيرة للسخرية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحجّ: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحجّ: ٣١].

ولذا فإنَّ الإسلام يعتبر الشرك نقيضاً له، ولا يرى أنَّ ثمّة نقاط التقاء ولا قواسم مشتركة تجمعه معه، سوى ربّما بعضِ قيم أخلاقية ذات طابع إنساني عام، ويعتبر أنّ هدفه الأساس هو تقويضه وإزالة معالمه، فالإسلام عقل وعلم وتناغم بين الدنيا والآخرة وبين النفس والجسد، والشرك جهل وظلامية واضطراب، وهو لن يمكنه قبوله والتعايش معه، بل إنّه سيجهر بدعوته للوحدانية في قلب حواضره وعلى عموم أفراده مفنّداً مزاعمه ومسفّهاً أفكاره ومستثيراً غضب أتباعه ومستدرجاً لهم إلى مواجهة فكرية، هادئة أو صاخبة، تركّز على الحوار الواعي المنفتح الصّريح، وذلك مراهنة منه على أنّهم سينتبهون من غفلتهم ويستجيبون لدعوته العاقلة والمتناسبة مع الفطرة، وأنّه كلّما كثُر أتباع الدين كلّما اشتد وتوسّع في حواره وحَسّن مواقعه واستمرّ في استخدام أسلوب الحوار، لأنّه الأصل والأساس لجذب أناس عقائديين يؤمنون به بعقولهم، وهو لن يستخدم العنف مهما عظم شأنه ما دام الآخر لم يبدأه بالعنف ولم يعترض طريق دعوته ويقمعها، وحتّى عندما يسود ويسيطر فهو لن يجبر الوثنيين على العقيدة الإسلامية، لكنّه سيزيل مظاهر وثنيتهم ويمنعهم من المجاهرة بممارسة طقوسهم الوثنية في ظلّ مجتمع إسلامي موحِّد، رغم ما في ذلك من قسوة، لأنَّ ما في الوثنية من ضحالة وجاهليّة وأوهام يجعلها غير جديرة بالاحترام، وإن كان لن يقهر أتباعها على

التخلّي عنها، بل هو سيجفف منابعها ويدعها تموت مع الجيل الذي أصمّ أُذنيه عن دعوة الحقّ ليرجو ولادة جيل متناغم مع الإسلام ومؤمن به.

هذا إذا ظلّ الصراع مقتصراً على الحوار، أمّا إذا اعتدى المشركون وصاروا يواجهون المؤمنين، كما هو حالهم ودأبهم على مدى التاريخ، وقَدِرَ المؤمنون على مواجهة عنفهم بالعنف، وكان النصر حليف المؤمنين، فإنَّ الإسلام المنتصر لن يقبل المشركين الملتزمين بشركهم رعايا في دولته متميزين بكيان خاص لهم كما فعل مع أهل الكتاب، بل هو سينظر فيما هو الأصلح له والأحفظ لأمن مجتمعه وعقيدته بعد أن يكون جميع المحاربين رهن الاعتقال، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ﴾ [محَمَّد: ٤]، وحينئذٍ تكون جميع الخيارات واردة، بما في ذلك قتل المحاربين المنهزمين في الحرب، أو استرقاقهم، أو العفو عنهم دون أنْ يُعطَوْا أيّة حقوق دينية، اللّهم إلا أن يُسلموا خوفاً أو قناعة، دون أن يُجبَروا على ذلك.

وزيادة في تعميق الانفصال بين الإسلام ونقيضه، فإنَّ الشريعة قد حرَّمت التزوّج منهم وتزويجهم لأيِّ سبب كان، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ ﴾ [البَقَرَة: ٢٢١]، وإن كانت لم تحرِّم باقي المعاملات، كما وأنّها سمحت باستمرار الترابط الأسري في إطار صلة الرحم ولزوم الإنفاق على العاجز ولداً كان أو والداً، رغم شركه، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العَنكبوت: ٨].

هذا هو حال المشركين وموقفنا منهم، ويلحق بهم في جميع ما ذكرنا كلّ من عداهم من الكفار من غير أهل الكتاب، ممن لا يؤمن بوجود إله لهذا الوجود

ممن كانوا يسمون قديماً بـ(الدهريين) أو الملاحدة كما نسميهم اليوم، وذلك مهما كانت العقيدة أو الفلسفة التي يستندون إليها.

المنافق كافر مع وقف التنفيذ

حينما تنتصر ديانة فتدخل بلداً وتسود عليه وتحكم شعبه، فإنَّ ردّة فعل الناس تُجاهها وموقفهم منها سيكون مختلفاً، فالمقتنع منهم بالعقيدة الجديدة سيجاهر صادقاً بولائه لها ودعوته إليها ودفاعه عنها، وغير المقتنع بها قد يؤمن بها بلسانه فقط، إمّا لأنّه لا يملك من الوعي الفكري ما يجعله مصرّاً على ولائه لعقيدته القديمة ولا ما يجعله بصيراً بأفكار الدين الجديد ومبادئه، فهو سطحي في كفره السابق وكذا في (إيمانه) الجديد، وإمّا لأنّه شديد الولاء لكفره ومتضرّر من سيادة الدين الجديد، وقد عزم على أن يواجهه ويكيده رغبة في الثأر منه وأملاً في إلحاق الهزيمة به أو إضعاف سلطانه، فيعلن إيمانه ستراً لنواياه وإمعاناً في خداعه ليتسنى له النجاح في تحقيق مآربه، ولنسمِّ الأول (سطحيّ الإيمان)، أما الثاني فقد سمّاه القرآن الكريم (منافقاً)، فذكره مراراً عديدة، بل خصّه بسورة باسمه، ذاكراً صفاته فاضحاً نواياه محذراً منه، وذلك للفت النظر إلى عظيم ضرره وشدّة خطره، لأنّه عدوّ متستّر متربِّص كامن، فيكون الكافر الظاهر أقلّ خطراً منه إذا عادى، ولولا أنّ الله تعالى قد دأب على فضح مكائدهم وإخبار النبي(ص) بها، لأوقعوا بالمسلمين ضرراً فادحاً، فقال تعالى في أوّل أكبر سور القرآن الكريم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا

خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ❁ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ❁ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ❁ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ❁ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٨ ـ ١٨].

وقد كان الموقف الإسلامي من المنافقين كما يلي:

أولاً: لقد اعتبر كلّ من شهد الشهادتين، ودخل في ظاهر أحواله فيما دخل فيه المسلمون، فصار يشاركهم في الحضور في مساجدهم والالتزام بمعاملاتهم في زواجه وبيعه وسائر أحواله،.. اعتبره مسلماً حتّى لو كان في قلبه ما يزال على الكفر، جهلاً منه وسطحية أو خديعة منه ونفاقاً، إذ لا يمكن معرفة ما يُكِنّه في قلبه إذا لم يظهر في فلتات لسانه والتواء مسلكه، وهو محترم المال ومحقّون الدم إلا أن يجهر بالارتداد أو يتورّط في مشاركة أعداء المسلمين في عدوانهم وحربهم على الإيمان وأهله؛ وكأنّ الإسلام لقوّة منطقة وسداد طريقته يراهن على أنَّ أمثال هؤلاء الناس لن يُخلّدوا، وسينتهون بموت جيلهم ليخلُفُوا جيلاً قد وعى الإسلام وعرفه، فيتعاطفون معه وتنطلق مسيرة الإسلام محمية برعاية الله تعالى ولطفه، وهم مهما كانوا أقوياء فسيضعفون تباعاً كلّما قويت شوكة الإسلام والمسلمين.

ثانياً: إنَّ أكثر ما يهمّ السلطة الجديدة هو حماية نفسها من أعداء الخارج ومن هؤلاء المنافقين أعداء الداخل، أمّا أعداء الخارج فالحماية منهم يتكفّل بها فنّ الحرب والجهاد على قاعدة ردّ العدوان والدفاع عن النفس، وأمّا المنافقون فإنّ على قائد المسلمين أن يسلك طريقتين:

الأولى: أن يبقيَهم تحت المراقبة بالسبل المتاحة كافة، كي تكون للقيادة قدرة على رصد تحركاتهم واستكشاف نواياهم، فتتوقّى شرّهم قبل أن يستفحل.

الثانية: حيث إنَّ هؤلاء المنافقين وصوليون وطامعون وحريصون على الدنيا جاهاً ومالاً، فلم يرَ الإسلام بأساً من أن (يتألّف قلوبهم) ويستميلهم إليه بالمال، إمّا لأنّه يرجو بذلك أن تَرِقّ قلوبُهم وتزول أحقادهم فيكفّون عن عداوته أو يخففون منها ويدَعُون التآمر مع أعدائه ويرغبون في بقائه لاستمرار تدفّق المال عليهم، أو لأنّه يرجو تعاونهم معه في بعض جوانب مواجهته لأعدائه، بل إنّه يرجو بعد ذلك أن ينفتح قلبهم للإيمان بعدما تخفّ فيه ضغائنهم، وهكذا كان حين جعل الله تعالى لهم نصيباً في فريضة الزكاة هو سهم (المؤلفة قلوبهم) منصوصاً عليه في كتابه الخالد القرآن الكريم، ليشير بذلك إلى أنَّ أمثال هؤلاء المنافقين والسطحيين سيكونون في كلِّ زمان، وسيبقى المسلمون معنيين بفرز نصيب لهم في زكاتهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التّوبة: ٦٠].

الارتداد وعقابه

حيث إنَّ الإسلام هو الاعتقاد بوحدانية الله تعالى، ونبوّة محمّد(ص)، والمعاد يوم القيامة، وحيث إنَّ الكفر هو إنكار هذه الثلاثة أو بعضها، فإنَّ المسلم يعتبر مرتداً إذا فارق الإسلام فأنكر واحدة أو أكثر من تلك الأركان الثلاثة، إمّا مباشرة أو بسبب إنكاره شيئاً من ضرورات الدين وبديهياته، وذلك بالنحو الذي يؤدّي إلى تكذيب النبي(ص)، كإنكار وجوب الصلاة أو إنكار حرمة الخمر، أو ما أشبه ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١١٥] ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ

وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٢١٧].

ولعلّنا نفهم الحكمة من جعل الارتداد (جريمة) يعاقب عليها التشريع بـ(القتل) إذا لاحظنا ما يلي:

أولاً: إنَّ تلك الحقائق الدينية هي على درجة عالية من البداهة والتوافق مع الفطرة، بحيث يتعقلها الإنسان مهما كان مستواه الثقافي والحضاري عند التأمل المخلص والهادىء، لذا فإنَّ إنكارها بعد الإيمان بها ليس له مبرر، ويمثّل سقوطاً فكريّاً أمام الإيمان المجلّل بالبساطة والبداهة.

ثانياً: إنّنا حين ننظر إلى أثر الإيمان بتلك الأركان الثلاثة وبما تجلّى عنها من تشريعات، في رفع المستوى الحضاري المدني والفكري للشعوب التي آمنت به، فإنّنا نرى في الارتداد عنه نكوصاً حضارياً وعودة إلى درك الوثنية والشرك بكلّ ما يعنيه ذلك من ظلاميه وتخلّف وجاهلية.

ثالثاً: إنّنا حين ننظر إلى الجانب الربّاني في هذه المسألة، نرى أنَّ المرتدّ مذنب عند الله تعالى مثلما يكون الزاني أو شارب الخمر أو تارك الصلاة مذنباً، بل إنَّ المرتدَّ أكبر جرماً وأعظم ذنباً لأنّه قد وجّه عصيانه وتمرّده إلى الله تعالى مباشرة، فردّ عليه دينه الذي ارتضاه لعباده وأنكر ما هو أصل في معرفته تعالى ومُرْتَكَزٌ في التواصل معه، وكما يصحّ في منطق التشريع معاقبة الزاني وإقامة الحدّ عليه، وهو حدٌّ قد يصل إلى الإعدام رجماً بالحجارة، فإنّه يصحّ بنفس المنطق وبنحو أوضح معاقبة المرتدّ وإقامة الحدّ عليه،لأنّ جريمته أكثر شناعة وأجدر بالإدانة، لما فيها من اجتراءٍ على الذات الإلهية المقدسة مباشرة وعدوانٍ على مقامها الجليل. وعلى ضوء ذلك فإنّه لا يحسن الاعتراض على هذه العقوبة بأنّها مخالفة لموضوعية الإسلام وعدالته وصيانته حُرّية الاعتقاد،

لأنّه إذا صحّت العقوبة على ذنوب أقلّ شناعة من الارتداد، كالزنى وشرب الخمر واللواط، فإنّه يصحّ بطريق الأولى أن يعاقب على الارتداد بعد وضوح مدى شناعته، ولعلّ هذه الخصوصية بالذات هي السبب في القرار الإلهي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨] لأنّه ذنب عظيم بحقّه تعالى، ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨].

الارتداد وحرية الرأي

وقد يُشكل على هذه العقوبة بأنّها تتنافى مع ما يجب أن يكفله الإسلام من حرية الاعتقاد المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهو إشكال لا بدّ من التوقّف عنده والجواب عنه بشيء من التفصيل، فنقول:

تمثّل العقيدة وتجلياتها القانونية والأخلاقية المرتكز الذي يقوم عليه صرح ما يصطلح عليه بـ(الأمة)، إذْ بها تتبلور شخصيتها، وتتحدّد مِيَزُها وخصائصها، ويجتمع شمل أفرادها، وتُضمن ديمومتها واستمرارها، ويصان كيانها وحرماتها، يتساوى في ذلك الأممُ المؤمنة والكافرة، والمتديّنة والعلمانية، والقديمة والحديثة، لذا فإنَّ بني البشر قد أجمعوا على ضرورة صيانة العقيدة من الانحراف وحمايتها من الانتهاك، واعتبروا الانقلاب عليها والخروج عنها خيانة وكفراً، فأدانوه وحكموا على فاعله بأحكام مختلفة يجمعها ويبررها أنّها (عقاب) يستحقّه فاعله من حيث إنَّ خروجه جريمة كبيرة يطال أثَرها جميع الأمة.

وحيث إنَّ الإسلام هو العقيدة والدستور اللذان توافقت عليهما الأمة، وآمنت بهما، وصارت تصنع من خلالهما تاريخها عبر القرون، وتشيد صرح تراثها

العلمي والثقافي، وتتمايز بتقاليدها، فقد أجمع الناس والفقهاء على إدانة المسلم الذي حمل عقيدة الأمة وفكرها وعاش في كنفها وترعرع في مجتمعها ونشأ بين أهلها، إذا فارقها وكفر بها وارتدّ عنها متجاهراً بذلك على رؤوس الأشهاد، لأنّه بهذا الارتداد العلني قد اعتدى على حرمة الأمة في أقدس خصوصيّاتها وأهمّ مرتكزات كينونتها، حين أعلن خروجه منها وانسلاخه عنها، ورفض ما تحترمه وتقدّسه، وخطّأها فيما تؤمن وتعتقد، وهنا لن تشكره الأمة على ذلك:

أولاً: لأنّها معنيّة به ولا تريد خروجه من الحقّ الذي تعتقده إلى الباطل الذي مال إليه، إشفاقاً عليه ورغبة في استعادته.

وثانياً: لأنّها معنية بحماية نفسها من تكاثر أمثاله، فرغم أنّها حين ستعاقبه سيموت وينعدم، لكنّها ستضفي على كيانها هيبة تمنع الكثير من ضعاف النفوس من الاجتراء عليها والاستهانة بحرماتها، لا سيّما وأنّها تعتبر نفسها قد وفّرت له فرصة أن يفهم الحقّ ويستوعبه، فلماذا لم يحرص على التعمّق فيه وتحسين استيعابه له، وهي بذلك العقاب ستحثّ أمثاله على أن يعيدوا قراءة عقيدتهم بشكل أفضل كي لا يقنعوا بإيمان شكلي لا يصمد أمام الشبهات.

ثالثاً: لقد أفسح الإسلام المجال للناس أن يتساءلوا ويبحثوا ويناقشوا من موقع الشك الذي يريد صاحبه الوصول إلى الحقيقة، لكنّه حذّره من التسرّع في إعلان موقف غير ناضج، فهو حر أن يبحث، بل يجب أن يبحث لأنّه يشكّ، ولأنّه لا يمكن منعه من (أن يشكّ)، لكنّه ليس حرّاً أن يعلن ارتداده قبل استكمال معرفته، وليس حرّاً أن يعلن ارتداده حتّى بعد اعتقاده الكفر، لأنَّ لهذا الإعلان لياقاته التي يجب أن لا تضرّ بحرمة مقدسات الآخرين الذين وَلَدُوه وساهموا في نشأته وحَمَلَ اسمهم وعاش في رعايتهم، فإنّ معنى «**لا إكراه في الدين**»، أنَّ الحاكم لا يمكنه الدخول إلى قلبك ليضع فيه الفكرة أو المشاعر التي يريدها، لأنّ القلب

هو المكان الأكثر حرية في الدنيا والأكثر امتناعاً على القهر والإكراه، ولكن ليس معنى ذلك أنّك إن كفرت فأنت حرّ بأن تعلن كفرك على الناس المخالفين لك، بل عليك أن تكتم ارتدادك ما دمت في رعاية هذه الأمة ومواطناً فيها، أو أن تهاجر عنها إلى أمة أخرى تنسجم معك وتقبل بك مواطناً جديداً فيها وفرداً في أمتها، وإلا فإنَّ بقاءك فيها واعتبار نفسك منها سيرتّب عليك مسؤولية جنائية إن أنت أعلنت الكفر بدستورها وأنت ما تزال على أرضها، لأنّه يعني من الناحية العملية أنّك لا تؤمن بقيمها ولن تلتزم أحكامها، ومن أجل ذلك جميعاً ستعاقبه، ولكن بعد أن تعطيَه فرصة أخيرة لتحاوره فعساها تزيل شبهته وتساعده في استعادة الثقة بعقيدته والإيمان الجازم بها.

لذا فإنَّ (حرية الرأي) في المصطلح السياسي الإسلامي، لا تعني حرية الجهر بعقيدة مضادة لعقيدة الأمة، بل هي حقّ يكفله التشريع الإسلامي لكلّ فرد يريد الاعتراض على أداء الحاكم لتسديده ونصحه وإغناء خياراته، وهي بهذا المعنى واجب أخلاقي على كلّ فرد من موقع كونه معنيّاً بسلامة المسيرة، حيث يتجلّى من المواطن نصحاً للحاكم، ومن الحاكم إصغاءً لنصيحة الناس، وذلك من خلال العديد من المؤسسات الدستورية والأهلية التي يراد بها إسماع الحاكم صوت الشعب والتواصل معه، وذلك بمختلف الوسائل المشروعة والأخلاقية المتناسبة مع قيم الإسلام وآدابه.

كذلك فإنّه يراد بـ(حرية الرأي) حرية الاجتهاد واختيار أحد الآراء التي ستنتج عنه، والذي قد يوافق رأي الآخر ومذهبه وقد يخالفه، شرط أن يكون ضمن القواعد التي تستهدي تراث الأمة الفكري ولا يصل إلى حد (البدعة) التي سنبين مفهومها وحكمها في مبحث لاحق، والبدعة وإن لم تصل إلى حدّ الارتداد فإنّها ستتيح للحاكم التدخل للمنع من الترويج لها، وذلك من موقعه كحامٍ لـ(التراث)

ومحافظ على سيادة الخطّ الفكري العام، حين يتجاوز المفكّر الخطوط الحمر، وحين يهدّد التمادي في استخدام حرية الرأي الأصولَ العقلانيةَ والضوابطَ الشرعيةَ للاجتهاد فيتحول إلى بدعة.

كذلك فإنّ الإسلام يسمح بحرية الرأي من حيث اختيار أسلوب التعبير عن الرأي كتابة أو خطابة، ونثراً أو شعراً أو رسماً أو تمثيلاً أو نحو ذلك، شرط أن يكون جميع ذلك ملتزماً، أي: متوافقاً مع الآداب التي اختارها المجتمع نمطاً لسلوكه وعنواناً لقيمه، فإذا تجاوز الأسلوبُ هذه الآدابَ والقيمَ فصار متحلِّلاً إباحياً، أو هجومياً فضائحيّاً، فإنّه سيكون من حقّ الحاكم حماية قيم المجتمع بالمقدار الذي أضرّت به حرّية الرأي، وذلك من موقعه كحامٍ لمنظومة القيم التي يحترمها المجتمع.

الدعوة للعقيدة بين الحماس والعصبيّة

ها هو الإنسان قد التزم عقيدة ما، حقاً تلك العقيدة أو باطلاً، ولأنّها (عقيدة)، ولأنّ محلّها عميق في الداخل الإنساني وشديد الرسوخ، فإنّه سيُمسك بها بقوّة، لأنّها عزيزة بقدر عزّة النفس ومقدّسة بقدر قداسة العقل، وهي ستُضفي قداستها على جميع تجلّياتها الأخلاقية والتشريعية وعلى ما له علاقة بها مِن بشرٍ ووطن ومعابد وتاريخ؛ كذلك فإنّه سيُحبّ أن يُنشيء مَنْ حوله مِنْ أبناء ومريدين وأتباع على عقيدته، ثم يتوسّع في دعوته لها لتعمَّ أكبر قدر من الناس على مدى العالم، بل إنَّ كثيراً من الحُكّام والمقتدرين يحاولون ويجهدون لفرض عقيدتهم التي يرونها الحقّ الأوحد، على من هم دونهم قوّة واقتداراً، وذلك بفعل حماسهم الجارف لها وتوهّمهم أنّهم يدلّون الناس على ما هو خير لهم حتّى لو تمنّعوا ولم يُقبِلوا على الإيمان بها اختياراً واقتناعاً، ويجعلون أنفسهم شبه الطبيب الذي قد يقدّم دواءً مرّاً لمريض يرفضه، لكنّه حين يتعافى به سيشكر طبيبه، وما أكثر ما ظُلم

الناسُ على مدى التاريخ من أجل عقيدة الحاكم أو المقتدر، وما أكثر ما سُفك من أجلها من دماء الآخرين الذين أصرّوا على عقائدهم، وكان ذنبهم ـ فقط ـ هو أنّهم صانوا (خَيارَهم) بدمهم، فعبّروا بطريقتهم عن اعتزازهم واعتدادهم بعقيدتهم حين كان الحاكم يعبّر بقتلهم عمّا توهّمه أنّه اعتداد بعقيدته، وهي مفارقة غريبة تؤكّد ما سبق أن قلناه: أنْ لا إكراه في الدين، وأنّ هذه المقولة الإلهية ستؤكّد احترام خيار الآخر، وتسعى بالحوار لإقناعه بالعقيدة المنتصرة، وتشرّع للتسامح الديني الذي بلغ به الإسلام أعلى الدرجات.

ورغم أنَّ الإسلام قد أمر المؤمنين به ببذل جهدهم في الدعوة إليه والعمل لترويجه بكلّ الوسائل التي تجعل كلمة الله تعالى هي العليا، فإنّه قد حثّهم على الرِّفق والتسامح والتواضع واستخدام الحكمة والموعظة الحسنة وقول الكلمة الطيّبة، فقال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وحثّ على الإصغاء للآخر والتفكير في كلامه واختيار أحسنه ونبذ التعصّب الأعمى الذي يجعلك تصمّ أذنك عن الحقّ حين يُلقى عليك، لأنَّ (التعصّب) اسم مذموم لحالة الإفراط في التمسّك بالعقيدة والحرص عليها وإظهار أعلى درجة من اليقين بها، إذا رافقه العنف والغلظة وكراهية الآخر والعزوف عن محاورته والإصغاء إليه، أمّا حيث يرتكز الإصرار على العقيدة على الحبّ للآخر والإشفاق عليه فإنّه (تعصّب) محمود لا ينفك عن ذلك اليقين وهو تجلٍّ طبيعي له.

حماية العقيدة والدفاع عنها

لا ريب في أنّه بقدر ما يتحمّس المؤمن للدعوة إلى عقيدته والترويج لها، فإنّه سيتحمّس بنفس القدر أو أكثر للدفاع عنها حين يراها في معرض الخطر، سواء الخطر المعنوي الناشيء من تشويه أفكارها وإثارة الشبهات في وجهها

للحدّ من تأثيرها، وتزييف بعض حقائقها واستبدالها ببدع خارجة عن أصولها، أو الخطر المادي الموجّه ضدّ وطن العقيدة وشعبها ومقدساتها بهدف إضعافها وإجهاضها، فيبذل الغالي والرخيص في سبيل الدفاع عنها وحفظها وضمان ديمومتها قويّة واضحة عزيزة، ولو وصل إلى حدّ الموت في سبيلها.

وانسجاماً مع هذا نرى أنَّ الإسلام قد حرّم إهانة المقدسات المعنوية والمادية، وعاقب الفاعل لذلك، وأمر بصيانتها عن كلِّ امتهان وانتهاك، كذلك فإنّه أمر بنصرتها بكلّ أدوات النصرة، بالقلم واللسان واليد والنفس والمال، وحرّم خذلانها وإدارة الظهر لها وإسلامها عند الشدائد، وما ذلك إلا لأنّه يرى أنَّ العقيدة هي عنوان كرامة الأمة وعزّتها وأساس هُويَّتها وسبب بقائها وديمومتها، لا سيّما وأنَّ الإسلام يرى نفسه ـ بحقّ وجدارة ـ أنّه الدين الأهمّ، والعقيدة الأنقى، والتشريع الأشمل والأفضل، وأنّ أمته خير الأمم والشاهدة عليها، وأنّه كلمة الله تعالى الأخيرة للبشر.

وقد تجلّى ذلك الحرص على العقيدة في تشريع الجهاد دفاعاً عن العقيدة وأتباعها ومُتَعلّقاتها من الأخطار المحدقة بها، وهو ذلك الجهاد الذي ظلّ حاضراً بقوّة في حياة الأمة جيلاً بعد جيل، والذي صار يتطوّر من كونه في البداية دفاعاً عن أخطار مباشرة طالت النبي(ص) وأصحابه، حين أوذوا وهُجّروا من ديارهم، إلى أن صارت المبادرة في يد المسلمين الذين صاروا يخوضون حروباً وقائية يغزون فيها العدو في عقر داره، وذلك في إطار ما صار يعرف بعد ذلك بـ(الفتوحات) التي طالت شعوباً وأماكن بعيدة، الأمر الذي جعل بعض الناس يظنّون أنَّ الإسلام قد قام عماده واشتهر ذكره واتسعت رقعته، ليس بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، بل بالقهر والغلبة والحروب والدماء، وهو الإشكال الذي تَصيّده الذين في قلوبهم مرض من المستشرقين ومَنْ أشبههم مِنْ خصوم

الإسلام، وصاروا يعمّقونه وينشرونه ويتفنون في توليد الشبهات من خلاله، وبخاصة شبهة أنَّ ذلك كان منافياً لـ(حرية الاعتقاد)، ولعنوان الرحمة الذي يفترض أن يحمل الإسلام لواءها.

وهذه الشبهة حول حروب الفتوحات قد يكون سببها ما يمكن أن نسمِّيَه بـ(فوضى الفتوحات) التي صار يخوضها بعض (الخلفاء) غير الأكفّاء إبّان حكمهم.. ربّما بدون ضرورة دفاعية، بل لمجرّد التوسّع وتحقيق بعض الطموحات، غير أنّ ذلك لا يلغي ضرورة قول كلمة في الموضوع نستجلي بها بعض جوانبه فنقول:

إنّنا نميل إلى الرأي الذي يعتبر أنَّ الجهاد في الإسلام قد شُرِّع من أجل حماية العقيدة وأتباعها وكيانها، حين تتعرّض لخطر مباشر يستهدفها أو لخطر غير مباشر من عدوّ يتربّص بها وينتظر الفرص لينقضّ عليها، وأنّ ما يصطلح عليه بـ(الجهاد الابتدائي)، والذي هو بمعنى جواز شنّ هجوم على مجتمع غير مسلم، لكنّه مسالم ولا يريد شرّاً بالإسلام ولا بالمسلمين، ليس هو الأصل في الجهاد، وهو غير ملحوظ في نظرية الإسلامية العسكرية، وهو أمر يمكن استظهاره وبلورته من خلال ما يلي:

أولاً: إنّنا حين نستحضر آيات الجهاد نلاحظ أنَّها قد شرَّعته من أجل الدفاع عن جمهور المسلمين الذين أصرّ المشركون على اضطهادهم كأفراد في مكّة المكرّمة، وعلى الكيد لهم وإيذائهم حين صاروا مجتمعاً ذا كيان خاص في المدينة المنوّرة، وقد ظلّ المسلمون يتحرّقون للردِّ على الظلم الذي يستهدفهم فلم يكن يؤذن لهم، وذلك حتّى نزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١]. وقد أكده قوله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ * إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩]. وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ * وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٩٠-١٩١]، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١] يؤسس لنوع العلاقة التي يحبّها الإسلام ويجعلها عنواناً كبيراً لعلاقته بالآخر، مسلماً كان أو غير مسلم، وهي مع سائر الآيات التي ذكرناها صريحة في كون الجهاد مشرّعاً أساساً بغرض الدفاع وردِّ العدوان، وذلك دون أن يضعف من هذه الدلالة آيات أخرى تحثّ على قتال الكفار، كقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التّوبَة: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفَتْح: ٢٩]، لأنَّ هذه الآيات وأمثالها مسوقة لحثّ المؤمنين على الجهاد بشكل عام دون بيان شروطه وظروفه التي تكفَّلت بها الآيات السابقة وحصرتها في إطار ردّ العدوان.

ثانياً: إنَّ ما يؤيِّد كون الجهاد مقتصراً على الجهاد الدفاعي، هو أن (المسالمة) عنصر أساس في منظومة القيم الأخلاقية الشاملة لشتّى جوانب العلاقة مع الآخر، ومقصد كبير من مقاصد الشريعة، ومُرتكَز تتكىء عليه العقيدة، لتنزع بذلك ذريعة

مهمّة من الذرائع التي قد يستخدمها الطواغيت لشنّ حروب ذات صبغة دينية بهدف فرض العقيدة على الكافرين بها، وهو ما بيّناه سابقاً حين عرضنا لذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، والذي يؤكده صريح قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الأنفَال: ٦١] وما روي عن النبي(ص) أنّه قال: «**المسلم من سلم الناس من لسانه ويده**»[١]، وهو النهج الذي برز في الكثير من مفردات الآداب الأخلاقية والأحكام الشرعية، وبخاصة في أحكام السلم والحرب وآدابهما، حيث وصل في رغبته في المسالمة إلى حد أنّه حقن دم المحارب الذي يدخل دار الإسلام مستجيراً بأيِّ مسلم يتعهد حمايته ويجعله في ذمامه، وهو الأمر الذي ورد في قول النبيّ(ص): «**المسلمون إخوة تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[٢]، وعن السكوني عن الإمام الصادق(ع) قال: قلت: ما معنى قول النبي (صلى الله عليه وآله): يسعى بذمتهم أدناهم، قال(ع): «**لو أنَّ جيشاً من المسلمين حاصروا قوماً من المشركين، فأشرف رجل فقال: أعطوني الأمان حتّى ألقى صاحبكم فأناظره، فأعطاه الأمان أدناهم، وجب على أفضلهم الوفاء له**»[٣].

ثالثاً: لقد كان من المفترض أن تُشَنَّ الغزوات والحروب التي حدثت على مدى التاريخ الإسلام وفقاً لمقتضيات الجهاد الدفاعي، سواء تلك التي حدثت في زمن النبي(ص)، أو تلك التي حدثت بعد وفاته في زمان الخلفاء وتوالت على مدى عدّة عقود بوتيرة متسارعة تمَّ فيها فتح معظم البلدان التي صارت تعتبر دار الإسلام، بل يمكن القول إنّها ظلّت تشتعل هنا وهناك على مدى عدة قرون تجاوزت فتح القسطنطينية في حدود القرن العاشر الهجري.

(١) المجازات النبوية/ للشريف الرضي/ ص: ٣٥٨.

(٢) الخصال، للشيخ الصدوق، ص: ١٤٩.

(٣) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج٦، ص:١٤٠.

أما ما حدث في زمان النبي(ص) فلا بدّ أن نجعله النموذج الذي يتجسد فيه التوجه الدفاعي للسياسة العسكرية، حيث يتضح عند الدراسة المعمّقة لمجريات الأحداث أنَّ النبيَّ(ص) وأتباعه من المسلمين قد ظلّوا على مدى سبعِ سنينَ يخوضون حروباً دفاعية متوالية، بدأت بغزوة (ودان) وانتهت بغزوة اليمن، حين رحل رسول الله(ص) إلى الرفيق الأعلى وهو يحرّض المسلمين ويجهزهم بقيادة أسامة بن زيد لحرب الروم، بحيث لا يرى فيها المؤرخ المنصف ما يشعر بعدوانية الإسلام ودمويته ونزوعه للعنف والرغبة بنشر دعوته بالقهر والسيف، كما ادَّعاه زوراً عدد من المستشرقين الحاقدين على الإسلام.

وأمّا ما حدث بعد وفاته(ص)، وبخاصة ما صار يحدث بعد زمن خلافة الصحابة التي اصطلح على تسميتها بـ(الخلافة الراشدة)، وذلك في زمان خلافة الأمويين ومَنْ بعدهم، فقد يكون حدث في الفتوحات التي أنجزوها ما يمكن اعتباره خروجاً عن النهج الدفاعي، نظراً لقيام بعض خلفائهم بتجاوزات عديدة تنمّ عن عدم الورع وعن الإصرار على السعي وراء طموحات استبدادية منافية لسماحة الإسلام وعدله، وذلك على رعاياهم من المسلمين فضلاً عن غيرهم من أهل الذمّة والموالي والشعوب المجاورة، غير أنّه ورغم ذلك فقد قيل: (إنَّ الإسلام أرحم الفاتحين)، مسجلين للفاتحين المسلمين تميّزاً فريداً عن غيرهم من الفاتحين، تَمثّل في أنّه مهما طغت عليهم بعض الطموحات أحياناً فإنّهم سيبقون قريبين من النهج الإسلامي الأكثر أخلاقية ورحمة، وربّما لو أتيح لنا أن نستحضر بدقة تلك الملابسات التاريخية التي سادت العلاقات بين المسلمين وسائر الشعوب المجاورة، لأمكننا الحكم بوضوح وإنصاف على مدى تمثّل المسلمين لقيم ومبادىء الجهاد الدفاعي في جميع فتوحاتهم، أو على الأقلّ في معظمها.

التقية ديني

التقية اسم مأخوذ من الفعل المزيد (اتقى)، بمعنى: تجنّب الخطر واحتمى منه، ومنه الوقاية والاتقاء، ويراد بها: (إخفاء الإنسان لعقيدته، بقولٍ أو فعلٍ ما يخالفها، اتقاءً لأذىً يخشى أن يستهدفه به المتسلط المخالف له)، فرغم أنَّ الهدف المباشر فيها هو حفظ النفس من الخطر، فإنَّ فيها حماية للعقيدة وضماناً لاستمرار بقائها من خلال بقاء أتباعها وتكيّفهم مع الضغوط التي تستهدفهم بسببها.

والتقيّة بهذا المعنى إجراء احترازي استثنائي يُلجأ إليه عند الضرورة في حالة عدم القدرة على حماية النفس من الأعداء المتربصين بالعقيدة وأتباعها، لأنَّ من شأن العقيدة أن يُجهر بها ويُدعى إليها ويُعمل على نشرها ويُحكم المجتمع بمبادئها وتُؤسس دولة وَفْق تعاليمها، فإذا كتمها صاحبها فإنّه لن يتسنّى لها تكثير أتباعها، كذلك فإنّه لن يمكّن إقامة مجتمع يحملها ودولة تحكم وَفْقها حتّى لو كثر أتباعها السرّيون، لذا فإنّه بمجرّد أن ترى في أنصارها وفي ظروفها ما يسمح لها بالمجاهرة بها يجب عليها المبادرة للجهر بتعاليمها بالنحو المناسب، مع السماح باستخدامها للأفراد الذين قد تعجز الجماعة عن حمايتهم أو يستفرد بهم عدوّهم في غفلة من جماعتهم أو بُعدٍ عنهم.

والتقيّة توجّه إنساني عام، ينبع من الفطرة ويتناغم مع أهداف العقيدة العليا التي يراد منها أن تكون حياة الإنسان مستقرّة وسعيدة وآمنة، فإذا أضرَّ إعلانها والجهر بها بحياته، وهدّد أمْنه واستقراره، فليس ثمَّة ما يمنع من إخفائها ريثما يزول الخطر، ما دامت راسخة في القلب عصيّة على النكران، لذا لجأ إليها الناس عبر التاريخ على مختلف عقائدهم، وأقرّها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ

تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦]، وهي الآية التي ذكر المفسرون أنها نزلت لتبرئة الصحابي الجليل عمّار بن ياسر (رضوان الله عليهما) حين نطق بكلمة الكفر تحت التعذيب، كما وأن النبي(ص) لجأ إلى استخدامها على مدى ثلاث سنين في بداية الدعوة في مكة المكرّمة لحماية نفسه وأصحابه من بطش قريش، ثم استخدمها المسلمون لاحقاً في المدينة المنوّرة إلى حين أمرهم(ص) بإظهار أمرهم قبل الهجرة، وهي ـ أيضاً ـ بهذا المقدار موضع اتفاق المسلمين بمذاهبهم كافّة، بل إنّهم يستخدمونها عند الاضطرار كلّما حدث عليهم خطب.. وما يزالون، لكنّه لمّا كانت الدولة دولة غير الشيعة والسلطان لهم على مدى التاريخ، وكانت حياتهم عبر القرون مستقرّة، فإنّهم لم يُبْتلوا بظالم يَخشْونه ليتّقُوه، فخلا فقههم ومواعظ علمائهم من ذكرها، فيما كان الشيعة في موقع المعارضة للدول القائمة، فظلّوا هدفاً لها تطاردهم في كلّ زمن وفي كلِّ قطر، فاحتاجوا إليها أحياناً كثيرة، فظهرت في فقههم ومواعظ علمائهم، وعملوا بها وما زالوا، وذلك كلّما وقع أحدهم بين يَدَي طاغية متعصّب فاستضعفه واستفرد به وخافه على نفسه.

إذن ما كان ينبغي أن تصير (التقيّة) سُبّةً للشيعة ما دامت تَوجُّهاً فطرياً ورُخصة منصوصاً عليها صراحة في القرآن الكريم، لولا أنَّ الشيعة هم من احتاجها واستخدمها في أوقات الفتن التي كان يشعلها بعض الظلمة من حكام المسلمين حين كانوا يستخدمون المذهب السُّنِّيّ وسيلة لتحقيق مطامعهم الساقطة وأهدافهم الغاشمة التي يبرأ منها الإسلام والتسنّن والتشيّع، فتطال الأبرياء وتَهدُر دماءَ المسلمين وتُفرّق جمعَهم وتُضعِف قوّتهم؛ وما ذنب الشيعة في ذلك سوى أنّهم كانوا مضطرين لاستخدام التقيّة خوفاً ممن يُفترض بهم أن يكونوا إخواناً

لهم وسنداً؛ إنّنا حين إذ نلوم الشيعة على استخدام التقية فأننا نلوم الضحية لأنّها خافت جلّادها وفرّت من أمامه تستر عقيدتها التي يطلبها بجريرتها، في وقت ما كانت عقيدتهم إلا موالاة أهل البيت الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشّورى: ٢٣] ، حيث كانت المودّة تعني تولّيهم ورُكوب سفينتهم وجَعْلَهم مصباحَ الهداية وثِقْلَ الله الأكبر وحبله الممدودة، إنّ الشيعة ـ أيّها النّاس ـ لا يستحون بعقائدهم، ولا هم يدينون بدين آخرَ غير الإسلام، وهم حين استعملوا التقيّة لم يخفوا بها ما يخجلون منه، بل ما مُنعوا من إظهاره إضراراً بهم وكيداً لهم، كيف وهذا مذهبهم قد ملأوا به الكتب وأعلنوه على رؤوس الأشهاد.

أمّا الآن أفلا ترى أنَّ كثيراً من السُّنَّة يستخدمونها خوفاً من الأنظمة القمعية التي تَحكُم بغير الإسلام والتي تريد أن تُخرس أصوات المؤمنين بالإسلام من السُّنَّة والشيعة حين يَدعُون إلى الإسلام الذي يُهدّد عروشهم ويفضح فجورهم، نعم هم يستعملونها لأنَّ الله تعالى شرّعها، ولأنّ الظروف ألجأتْ إليها، فهي أسلوب في الدفاع عن العقيدة وعن النفس حين يخاف المؤمن ظالمه، وستبقى هكذا إلى ما شاء الله تعالى شَرْعاً مباحاً يحتمي بها المؤمنون كلّما اضطُروا إليها، وهي حقّاً كما قال الإمام الباقر(ع): «**التقيّة من ديني ودين آبائي، ولا إيمان لمن لا تقيّة له**»[1]، وكما قال ولده الإمام الصادق(ع): «**التقيّة ترس الله بينه وبين خلقه**»[2] يُصدّق كلامُهم قولَ الله تعالى ويستوحيه، ما داموا عِدْل القرآن لا يفترقون عنه حتّى يردوا عليه الحوض.

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٦، ص: ٢٠٤.

(٢) م س، ص: ٢٠٨.

نشوء المذاهب

تتميز العقيدة في زمان مؤسسها باجتماع أتباعها عليها ووحدتهم فيها، سواء كانت فلسفة وضعية ابتدعها مصلح اجتماعي، أو كانت رسالة سماوية موحى بها إلى نبيّ مجتبى ورسول مصطفى، فهو ما دام حيّاً ينطق بها ويبني أصولها ويشرح معانيها ويوجّه السلوك على هديها، سيكون أتباعه ومريدوه مصغين إليه وآخذين عنه وراجعين إليه، فلا تجد منهم مبدعاً فيها ما دامت تعاليمها لم تكتمل، ولا منافساً لمؤسسها في قيادة أو اجتهاد، فتعيش العقيدة في ظلّه أيّامها الذهبية وضوحَ مبادىء وتماسك جماعة؛ وهكذا تمضي السنون إلى أن يعرض على مؤسسها الموت، أو يعرض عليه ما يستوجب غيابه عن ساحة دعوته واضطراره لأن يتواصل مع أتباعه من خلال بعض الوسطاء الذين يقومون بأمر الدعوة نيابة عنه، فتقف ـ حينئذٍ ـ أمام تحديَين داهمين واستحقاقين كبيرين:

أولهما: حفظ التعاليم وحمايتها من التحريف لضمان بقائها مطابقة لما أعلنه مؤسسها.

وثانيهما: انضواء الأتباع تحت لواء قائد متوافق عليه، توليه الجماعة ثقتها وتطيعه في ما يصدره من أوامر وتتبع خطاه في ما يتَّخذه من مواقف.

هنا يفترض بالعقيدة الناشئة أن تحترز لمثل هذه الاستحقاقات وتضع منهجاً وطريقة لضمان قيام خليفة كفوء يكمل مسيرة القائد المؤسس ويترسّم خطاه ويحقّق أهداف الدعوة ويحميها ويكثر أتباعها ويحفظ أفكارها وتعاليمها، فتسمح تعاليمها بأن يتولى المرجعية الفكرية والقيادة السياسية شخص واحد ذو صفات معينة، أو تسمح بأن تكون المرجعية الفكرية لشخص والقيادة السياسية لشخص آخر، أو بغير ذلك من الصيغ، وفي مختلف الحالات فإنَّ كلَّ عقيدة ستمرّ عبر الزمن وتَوالي الأجيال وتَنَوّع التحديات في مخاض فكري وحركيّ صعب يحتّم بروز اجتهادات

فكرية مختلف عليها، ومطامع سياسية تضعف وحدتها، وهي أمور سيكبر خطرها كلما كانت المرجعية الفكرية أو القيادة السياسية ضعيفة وعاجزة عن الإمساك القوي بتراث العقيدة وإنجازاتها وحركة أنصارها، ولذا فإنّنا ما نظنّ أنّ عقيدة قد سلمت من هذا المخاض، ولا هي خرجت موحّدة من مثل هذا الاستحقاق، فتوزّعت الخلافاتُ الفكريةُ أتباعَها مذاهب، وفرّقتْهم المطامع أحزاباً، فلم ينجُ من ذلك حكيم متفلسف، ولا نبيٌّ مرسل، رغم ما في الدين من ربّانية، وما في النبوّة من عصمة، وهكذا كان، فنشأت المذاهب والفرق في الأديان السماوية، فتجاوزت الحدّ، وبلغت العشرات في العدّ، سبعين أو تزيد، لكنْ ليس على نحو التعيين، بل تعبيراً عن تكاثر تلك المذاهب عبر الزمن، تلك الكثرة التي يكفي لشجبها واستغرابها أن يرمز إليها، ما دام معظمها انحرافاً عن مسار الدين الصحيح، بعد أن غاب النبيّ(ص)، وحورب الوصيّ(ع)، وحكمت الأهواء والمطامع، وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٢ ـ ٥٣].

الفرق الإسلامية

لا يتناسب مع خاتميّة الدين الإسلامي وشموليته أن يخلوَ تشريعه من ذكر واضح ومفصّل لمرحلة ما بعد النبيّ(ص) حين يغيب عن ميدان عمله، إمّا مؤقّتاً في سفر أو جهاد، أو دائماً حين يختاره الله تعالى لجواره، بل إنّنا نجد أنَّ شدّة الاهتمام بهذا الجانب هي دليلٌ على مدى ضرورة استقرار الأمور بعد موته(ص)، وضمانٌ لوحدة المسلمين واستمرار الدعوة الإسلامية ونشرها في جميع البلدان ورفع رايتها فيها، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وليكتمل بذلك تبليغ الدين ويتعـزّز حضوره وقوّته، فيصدق فيه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ

وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وهي الآية الكريمة التي قال المفسرون إنّها نزلت في حجة الوداع لتحثّ النبي(ص) على الجهر بالنّص على إمامة عليّ(ع) يوم الغدير، وذلك خشيةَ أن يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـًٔاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، لذا فإنّنا نلاحظ أنَّ النصوص المقدسة في القرآن الكريم وأحاديث النبي(ص) قد اعتنت عناية فائقة بهذا الجانب، فتحدثت بتفصيل دقيق عن الإمامة أو (الخلافة)، وعن كيفية معرفة الإمام وصفاته واسمه ودوره، تأكيداً من ديننا الحنيف على أهمّيتها وحيويتها حتّى لو لم تجرِ الأمور ميدانياً بعد وفاة النبي(ص) بالنحو المنصوص عليه، ما دام ذلك النص وإيحاءاته ستبقى ضمانة لتسديد المسار بنحوٍ ما حين يُخشى أن ينحرف به بعضُ أصحاب المطامع ممن سيخلفون النبيّ(ص) إذا انقلبوا على أعقابهم.

والغريب أنَّ موضوع الخلافة وما يتفرّع عليه من مسائل هو سبب نشوء مذهبين كبيرين هما ما صار يُعرف بـ(الشيعة) و(السُّنّة)، ورغم أنَّ كلّا منهما قد انقسم إلى عدّة فرق، بسبب موضوع الخلافة وغيرها، فإنّ الفِرَق قد صارت تنقرض وتتضاءل ليبقى منها المذهب الإثنا عشري، والإسماعيلي، والزيدي، والإباضي، والسُّنّي الذي اشتهر بمذاهبه الأربعة فقهياً، وبغلبة التوجه الأشعري عليه عقائدياً، رغم أنّك قد ترى فيهم من يميل إلى المعتزلة في بعض مسائل العقيدة؛ ونلاحظ أنّ المذهب الأكثر شهرة وأتباعاً منها هما مذهب الشيعة الإثني عشرية، ومذهب السُّنَّة، والسُّنَّة أكثر أتباعاً من الإثني عشرية، وأتباع كلا المذهبين يتواجدون معاً في معظم الأقطار الإسلامية بنسب متفاوتة، ولكن الأقطار التي يغلب عليها المذهب الشيعي هي إيران والعراق، ويكثر وجودهم في الهند

وباكستان وأفغانستان والحجاز والخليج ولبنان، في حين يغلب مذهب السُّنَّة على سائر الأقطار التي يخلو بعضها من الوجود الشيعي تماماً.

وتتَّفق جميع هذه المذاهب فيما بينها على معظم القضايا العقائدية والمفهومية والفقهية، وبخاصة أركان العقيدة ومسائلها الكبرى التي بها صاروا جميعاً مسلمين، فعصمت بها نفوسهم وأموالهم وتعايشوا في أوطانهم، وهم إن اختلفوا في بعضها فإن اختلافهم فيه يرجع إلى اختلافهم في بعض مسائل المنهج الذي يوصلهم في أغلب الأحيان إلى نتائجَ متقاربة أو واحدة ما دامت مرجعيتهم الكبرى المشتركة هي القرآن الكريم وأحاديث النبي(ص)، لا سيّما وأنّ علماء كلّ مذهب يختلفون ـ أيضاً ـ فيما بينهم على عدد من المسائل في شتّى المجالات، بما فيها بعض مسائل العقيدة.

إذن فلن يكون عجيباً اختلاف المذاهب فيما بينها، ذلك الاختلاف الذي ظلّ العلماءُ يكتبون حوله على مدى القرون الأربع عشرة المنصرمة ما ملأ مئات الآلاف من المجلدات، وهو اختلاف فكريّ مليء بالحيوية وجدير بأن يظلّ موضع حوار أخويّ بنّاء؛ لذا، ومساهمة منّا فيه، فإنّنا سنعرض من ذلك ـ فقط ـ لأهمّ ما وقع الاختلاف فيه بين المذهبين الأكبرين: السُّنَّة والشيعة الإثني عشرية، أو للاختصار (الإمامية)، وذلك في أمور نذكرها كما يلي:

الأول: حول العقل: فقد اعتقد الإمامية ـ ومعهم المعتزلة من السُّنَّة ـ أنّ للعقل الذي يشتمل على مدركات فطرية ومسلمات بديهية، دوراً أساساً في الإيمان بالعقائد بالنحو الذي لا يجوز معه التقليد فيه، كما وأنّ له دوراً في السلوك، حيث يستقل بإدراك حسن العديد من الأمور أو قبحها، وأنّه من أجل ذلك يدخل في قواعد الاستنباط الفقهيّ ويساعد على الوصول إلى العديد من الأحكام الشرعية بمعزل عن وجود النّص فيها.

أمّا جمهور السُّنَّة الملتزمون بمنهج الأشاعرة فهم يخالفون في ذلك ولا يرون تفرّد العقل في ذلك، بل يُجيزون اتّباع النصّ مهما كان مضمونه مخالفاً للعقل، ويكتفون بما جاء به الوحي دون حاجة لعرضه على العقل، كما وأنّهم لا يرون لمدركاته العمليّة حاكميّةً على النّص، حيث لا مانع عندهم من أن تنعكس القيم في الأوامر الشرعية، فيأمر الله تعالى بالظلم أو الكذب وينهى عن العدل والصدق.. رغم أنَّ هذا لم يحدث، في حين يمنع الإمامية من ذلك ويرون استحالته على الله تعالى، لأنّه تعالى لا يجافي مدركات العقل، بل ينسجم معها بوصفه خالق العقل ورئيس العقلاء، سواء في العقائد التي ارتضاها لعباده أو في التكاليف التي أمر بها.

الثاني: حول الإمامة: فقد رأى الإمامية أنَّ الإمامة واجبة، وهي امتداد للنبوة في المرجعية الدينية والقيادة السياسية، وأنَّ الإمام لن يكون مرجعاً إلا إذ كان معصوماً، وأنّه لا بدّ أن يكون معيّناً من النبيّ(ص)، وأنّ النبيّ(ص) قد نصّ قبل وفاته على إمامة عليّ والحسن والحسين(ع)، كما وأنّه قد رُويت عنه(ص) أحاديث فيها نصٌ على سائر الأئمة(ع) الذين صار كل سابق منهم ينصّ على الإمام اللاحق حتّى استكملوا اثني عشر إماماً، آخرهم المهدي (عج) الذي ما يزال حيّاً وغائباً عن الأنظار منذ سنة (٢٦٠هـ)، ولن يظهر إلا حين يأذن الله تعالى له بالخروج، والإمامية ترى أنّ كلّ خلافة قامت بعد النبيّ(ص) هي غير شرعية، وأنَّ المرجعية الفكرية والقيادة السياسية منذ غيبة المهدي هي للفقهاء المجتهدين العدول.

أما السُّنَّة فيرون أنَّ الإمامة واجبة، وأنّها شأن من شؤون الناس يتوافقون عليه بالنحو الذي يرضيهم، وأنه لا يشترط فيه العصمة، وأنّ النبي(ص) قد مات دون أن يوصيَ إلى أحد بعينه، ولهم في صفات الخليفة وكيفية اختياره كلام، لكن لا بدّ أخيراً من أن يبايعه الناس كي يُظهروا أنهم ملتزمون بطاعته.

الثالث: حول الصحابة: فقد رأى الإمامية أنّ لصحابة النبيّ(ص) من الرجال والنساء، ومعهم زوجاته وذوو قرابته، شرف السبق إلى الإيمان والتبرّك برؤية النبيّ(ص) ومجالسته ومحادثته، لكنّهم ليسوا معصومين، ولا هم كلّهم عدول، فقد كان فيهم المنافقون والفاسقون، إضافة إلى من أحسن الصحبة وبلغ الغاية في العدالة، وليس لهم مزية في التشريع إلا أنّهم مجرّدُ رواةٍ تجري على حديثهم قواعد الحديث ويخضعون لموازين الجرح والتعديل، وليس لعملهم حجية خاصة إلا أن يكون مستنداً لحديث يروونه ويصح لنا أخذه عنهم. ولذا فإنَّ الإمامية يستحلّون ذكرهم بما عملوا ليكون ذلك عبرة ومثلاً، لتتولّى منهم من أحسن وأناب ونتبرّأ ممن أساء وأخطأ، وخاصة إذا كانت أعمالهم الحسنة والقبيحة قد أسّست لما بعدها وأثّرت في أتباعهم واغترّ بهم قوم وانخدعوا وجانبوا الحقّ الواضح وخالفوا تعاليم النبي(ص)، ويَرَون أنَّ ذلك هو توجيه القرآن الكريم وطريقته في الذين اتبعوا نبيّنا(ص) من أصحابه وأقاربه وزوجاته، وكذا فيمن سبقه من أنبياء(ع)، كما هو الحال في ابن نوح(ع) وزوجته وزوجة لوط(ع).

أمّا السُّنَّة فهم يَرَوْن عدالة جميع الصحابة، ويحملون فعل مَنْ أخطأ منهم على أنّه اجتهاد منه فهو معذور فيه، أو يَرون أنّه لا بدّ قد تاب عنه ولو لم تُعلم توبتُه، ويَرَوْنَ أنّ فتوى الصحابي وفعله حُجّة، لأنّهم لما اعتبروه عادلاً فإنّهم قد اعتبروا أنّه لا يقول ولا يفعل إلا وَفْق ما عَلِمه من النبي(ص)، ولذا فهم يترضَّون عنهم ويسكتون عن أخطائهم ولا يذكرون إلا مناقبهم.

الرابع: مصادر التشريع: فقد رأى الإمامية أنَّ أحكام الشريعة لا تؤخذ إلا من المصادر التي دلّ الدليل على أنّها حُجّة وطريق إلى معرفة حكم الله تعالى، ومصادر التشريع هي:

١ ـ القرآن الكريم الموجود اليوم بين أيدينا كما نزل على قلب نبينا محمّد(ص) دون تحريف ولا نقص.

٢ ـ سُنَّة نبيّنا محمّد(ص) التي وصلتنا عنه بسند صحيح معتبر تحكي قوله وفعلَه وتقريرَه، والتي يعتبر جزءاً منها لا يتجزّأ قولُ الإمام المعصوم من أهل بيته(ع) وفعلُه وتقريرُه الذي نقل إلينا بطريق صحيح معتبر، لأنّهم(ع) ورثوا علم النبيّ(ص) وعنه أخذوا.

٣ ـ إجماع العلماء الذي يكشف عن تأييد المعصوم(ع) له.

٤ ـ حكم العقل فيما يعرف بالمستقلاّت العقلية وملازماتها، وهي مجال المدركات العقلية بما للعقل من معنى مصطلح.

أما عند السُّنَّة فهي لا تختلف عمّا عند الإمامية إلا في بعض التفاصيل، وأهمها في أنّ فعل الصحابيّ وقوله عندهم حُجّة، في قبال قول الإمامية بحجية قول وفعل وتقرير الأئمة الإثني عشر(ع)، وأيضاً في قول بعضهم بالقياس، في قبال قول الإمامية بحجية حكم العقل، وكذا في قول بعضهم بالاستحسان والمصالح المرسلة.

وبنظرة إجمالية فإنّك تلحظ تقارباً كبيراً بين المذهبين في مختلف العلوم التي لها علاقة باستنباط الأحكام الشرعية، مثل علوم التفسير والحديث وأصول الفقه، ما أدّى إلى تقاربهم في الأحكام الشرعية بدرجة جيدة، وبنحو لم يكن الاختلاف مانعاً من قيام مجتمع إسلامي متجانس رغم تنوّع مذاهبه.

الخامس: في الاجتهاد والتقليد: لقد توافقت المذاهب الإسلامية على جواز الاجتهاد بمعنى: (بذل الجهد في النّظر في الأدلة لاستخراج الحكم الشرعي منها)، لأنّه هو الطريق الطبيعي والعقلائي للتوصّل إليه، مثله في ذلك كمثل أيّ

علم يحتاجه الناس، ولا يمكنهم الوصول إليه إلا من خلال من له خبرة ومعرفة به من أهل العلم، لا سيّما وأنَّ القرآن الكريم قد كان واضحاً في ذلك حين قال تعالى: ﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]، كما أنّهم قد اتفقوا على أنّه يجب على العامي الرجوع في ذلك إلى المجتهدين لأخذ الفتوى منهم.

غير أنَّ الذي حدث هو أنَّ اندفاعة الاجتهاد عند السُّنَّة قد توقفت عند أئمّة المذاهب الأربعة، وصار العلماء من بعدهم يجهدون لتقليدهم والاقتداء بهم وشرح أقوالهم والدفاع عنها، وذلك على مدى القرون التي تلت ذلك، وإن صاروا الآن يحاولون التحرّر من ذلك بعد أن اتسع نطاق الحاجة إلى الاجتهاد للإفتاء في كثير من الأمور المستجدّة. أمّا الإمامية فإنّهم قد بدأوا يمارسون الاجتهاد في حياة أئمة أهل البيت المعصومين(ع) وبتوجيه منهم، وصار يتبلور تدريجياً في حياة الأئمة المتأخّرين وعصر الغيبة الصغرى، إلى أن استكمل صورته في المئة سنة الأولى من عصر الغيبة الكبرى على يد الكبار منهم، كالشيخ الصدوق والمفيد والمرتضى والطوسي، ثم استمرّ وهو يتطور إلى يومنا هذا، يحذو اللاحق منهم حذو السابق، مستفيداً منه ومضيفاً عليه، دون أن ينتكس مسارُه أو يخبوَ أَوارُه، رغم الظروف العصيبة التي ظلَّ الشيعة يتقلّبون فيها على مدى القرون المنصرمة.

ظاهرة الاجتهاد

تحتاج كلّ عقيدة جديدة إلى علماء متبحرين بها يحملون أفكارها ليعلّموها لمن يعاصرهم، ثم سيظهر من أولئك المتعلمين جيل جديد من العلماء يتابعون حمل أفكارها، وهكذا تستمرّ كواكب العلماء مع استمرار جمهور الأَتْباع جيلاً بعد جيل، سواء في ذلك الإسلام وغيره من الأديان.

وغالباً ما تكون مهمّة العالم هو فهم التعاليم وتوضيحها وتطبيق كلّياتها على وقائعَ

وحالات مستجدّة، كما وأنّه غالباً ما يكون له نفوذ بين الناس وسلطة عليهم، حيث يوظف جميع ذلك لخدمة العقيدة وحمايتها ونشر أفكارها، متفرغاً لذلك و(مجتهداً) فيه، يحمل نصوصها وتجارب مؤسسيها ووصاياهم، وينظر فيها مستعيداً تلك التعاليم ومفسّراً لها ومطبّقاً لكلّياتها على جزئياتها، لتبقى العقيدة وتشريعاتها حاضرة بين النّاس وموجّهة لسلوكهم وقائدة لحياتهم وصانعة لتاريخهم.

فـ (الاجتهاد) بمعنى: (بذل الجهد في النظر في الأدلّة لاستخراج الأحكام الشرعية) ظاهرة عقلائية أقرّها الإسلام وأمـر بها ربّنا عـزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التّوبة: ١٢٢] ، كما حثّت على الاجتهاد الأحاديث الشريفة التي حثّت على طلب العلم عموماً، والتي يفهم من مضمونها الحثّ بطريق أولى على لزوم الاستمرار في طلب العلم حتّى بلوغ الغاية فيه، وبخاصة علوم الدين، وجَعَلَه الفقهاء واجباً كفائياً لا يجوز التهاون فيه، واعتنت الأمة به فهيّأت له أسبابه من تمويل ومعاهد، ورفعت من شأن العلماء وأحلّتهم بينها مكاناً لائقاً وأوْلَتْهم تقديرها واحترامها.

وقد توافق المسلمون على أنَّ المشرّع هو الله تعالى وَحْدَهُ، وأنَّ النبي(ص) لا يقول شيئاً من نفسه، بل هو وحي يوحى، فجميع ما يقوله أو يفعله أو يقرّره هو بأمر من الله تعالى، وأنَّ المجتهد هو مجرّد عالم بما نزل من عند الله تعالى وبما حدّث به رسول الله(ع) عنه، دون أن يكون له حقّ أن يفتيَ برأيه ولا أن ينسب إلى الشريعة المطهّرة حكماً ليس له سند من قرآن كريم أو حديث شريف، فعن الإمام الصادق(ع) أنّه قال: «**من أفتى الناس برأيه فقد دان بما لا يعلم، ومن دان بما لا يعلم فقد ضاد الله حيث أحلّ وحرّم فيما لا يعلم**»[1]، وعنه(ع) أنّه قال:

---

(١) الكليني، أصول الكافي، ج١، ص: ٥٧.

«**والله ما نقول بأهوائنا، ولا نقول برأينا،ولا نقول إلا قال ربّنا**»[1]، وعن الإمام الباقر(ع) أنّه قال: «**لو كنّا نفتي الناس برأينا وهوانا لَكُنّا من الهالكين، ولكنّا نفتيهم بآثار من رسول الله(ص) وأصول علم عندنا، نتوارثها كابراً عن كابر**»[2] ورغم وضوح اختصاص التشريع بالله تعالى وَحْدَهُ، فإنّه قد زعم فريق من المسلمين أنّ للمجتهد أنْ يصدر حكماً في واقعة ليس عليها نصّ يؤخذ به، مستنداً في ذلك على رأيه الشخصي الذي يعتبره مشروعاً لأنّه يستوحيه ممّا هو معروف من مقاصد الشريعة، وذلك من خلال ما يعرف في علم أصول الفقه بـ(القياس) أو (الاستحسان) أو (المصالح المرسلة)، ورغم أنَّه نفى عن فتواه صفة الرأي بالمعنى الشخصيّ المحض، فإنَّ فريقاً آخرَ من المسلمين لم يوافقوه على ذلك، وأصرّوا على ضرورة البقاء ضمن النصّ أو على ما أجاز النصّ الاعتماد عليه من أدوات يستفاد منها الظن بالحكم الشرعي.

ورغم أنَّ (إجماع) العلماء على حكم لا يوجد عليه نصٌّ، يعتبر من العمل بالرأي، فإنّ فريقاً من المسلمين أجازوا الاعتماد عليه محتجين بسماح الشريعة بذلك، حيث رَوَوْا عن النبيّ(ص) أنّه قال: «**لا تجتمع أمتي على خطأ**»، واعتبروه دليلاً على حجية العمل بالإجماع والاستناد إليه كمصدر من مصادر التشريع المسموح بها إلى جانب القرآن الكريم وأحاديث النبيّ(ص)؛ في حين ذهب الإمامية إلى أنَّ الإجماع ليس حُجّة في ذاته إلا إذا انكشف من خلال القرائن المحيطة به رضى الإمام المعصوم(ع) عنه، ولو اعتماداً على قاعدة اللطف، أو لأنَّ الحكم المجمع عليه هو من الأمور العقلائية التي لا يختلف عليها الناس بمختلف أديانهم، فتكون حجيته حينئذٍ مستندة إلى كونه من المدركات العقلية البديهية التي لا شكّ في رضا الشرع بها وتبنّيه لها، حيث إنّه قد رضيها حَكَماً في العقيدة، فكيف لا يرضاها حكماً في ما لا نصّ عليه من

(١) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٣، ص: ٢٣٧٢.

(٢) م ن.



الشريعة، فيخرج من تحت عنوان (الرأي) الشخصي الذي مهما ظننا رضى الشارع عنه وقبوله به سيبقى قابلاً للتأثّر بالدوافع الشخصية، ويدخل تحت عنوان (الحكم العقلي) المنزّه عن الدوافع الشخصية والمقطوع برضى الشارع المقدس به، من حيث إنّه رئيس العقلاء وسيّدهم.

مقام المجتهد ودوره

للعالم بالشريعة مقام عظيم عند الله تعالى وبين الناس، وهومقام يزداد علوّاً كلما زادت درجته في العلم، لأنّه يفترض به أن يزداد تقوى وخشية وورعاً كلما ازداد علماً واستنار قلبه بنوره ووعي حقائقه، فقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ * ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ * كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ * لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨-٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وعن النبيّ(ص) أنه قال: «**إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورَّثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر**»[1]، وعن السكوني، عن الإمام الصادق(ع) قال: قال رسول الله(ص): «**الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل يا رسول الله: وما دخولهم في الدنيا، قال: اتّباع السلاطين، فإذا فعلوا**

(١) الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة،ص: ٤٠١.

ذلك فاحذروهم على دينكم»[1].

وأهمّ دور للعالم هو حفظ الدين وتعليمه للناس، فإذا صار مجتهداً جاز له الاعتماد على فهمه لما تتضمّنه النصوص من أحكام، فيفتي بها الناس الذين يصعب عليهم الإحاطة بتمام الشريعة ليتسنى لهم معرفة أحكامها التي تفرّقت في النصوص وتوزَّعت فروعها هنا وهناك؛ ولا غرو أنّه مع قدرة المجتهد على الفتوى سيكون الأجدر بالقضاء، من حيث هو موقع لا تقتصر أهميته على مجرّد معرفة الحكم الشرعي، بل هو حكم في تنازع قائم بين المترافعين، وفضٌّ خصومة ناشبة بينهم، وإصلاحُ الأمر وَفقاً للشريعة، حيث سيتدخل في الحكم الصادر عن القاضي أمور أخرى غير نفس العلم مثل: بالشريعة، مدى دقته في تقدير الوقائع الخارجية، وعدله، وحسن نظره في القضية المرفوعة إليه، ونحو ذلك.

وعلى هذا اتفقت المذاهب، لكنَّ الشيعة دون سواهم، وبتوجيه من أهل البيت(ع) وفي إطار ما تمّ رسمه بعد الغيبة الكبرى لتدارك آثار غيبة الإمام المعصوم(ع) وشغور موقع القيادة السياسية والمرجعية العلمية، لم يجدوا أجدر من الفقيه المجتهد ليكون (مرجعاً) فقهيّاً يجب اتّباعه حال حياته على المؤمنين المعاصرين له، فيقلدونه في فتواه ويأخذون عنه الأحكام، فإن أمكن أن يكون واحداً لجميع الناس في جميع الأقطار كان حسناً وخيراً، وإلا فلا مانع أن يتواجد أكثر من مجتهد في أكثر من قطر، ليرجع الناس إلى من تجتمع فيه شروط المرجعية في قطرهم أو في غيره.

فتَمَيَّز الشيعةُ عن غيرهم بهذه (المرجعية) التي هي السبب المباشر لاستمرار عملية (الاجتهاد) وبقائها حيّة ومعاصرة في كلّ زمان، حين اشترطوا كون المرجع الذي يقلَّد في كلّ زمان (حيّاً)، كي يواكب قضايا الناس ومستجداتهم

---

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ١، ص: ٤٦.

بالتشريع، لا أن يكون مجرّد ناقل لفتوى عالم كبير قد سبقه، حتّى لو سمّاه أتباعه (إمامَ) المذهب، ما دام ذلك (الإمام) ـ وَفقاً لرأي غير الشيعة ـ لا يزيد عن كونه مجرّد عالم مجتهد قد أضفت عليه السياسة أو القداسة هذه الصفة؛ وقد روي في الحثّ على الفتوى أنّ النبيّ(ص) قال: «**سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموه فقولوا: مرحباً بوصيّة رسول الله، وأفتوهم**»[1]، وعن الإمام الباقر(ع) أنّه قال لأبان بن تغلب: «**إجلس في مسجد المدينة وأفتِ الناس، فإنّي أحبّ أن يرى في شيعتي مثلك**»[2]، وعن الإمام الصادق(ع) أنه قال: «**وأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه**»[3].

كما وأنّهم لم يجدوا أجدر منه ليكون قائداً سياسياً يأخذ شرعيته من تنصيب الإمام المعصوم(ع)، ليقوم مقامه في زمان غيبته في إدارة قضايا الناس العامة التي لا بدّ لهم فيها من رئيس يتولاها، حيث أَوْكَلَ ذلك إلى كلّ فقيه يحوز صفة الاجتهاد والعدالة والمعرفة بقضايا الناس وحسن الإدارة والتدبير، فإن اجتمعت هذه الصفات في أكثر من واحد كفاهم اختيار أحدهم بالطريقة التي يتراضى الناس عليها ليتولّى شؤونهم بما يناسب أعرافهم وظروفهم والأهداف المرجوة منه، وهو الموقع الذي صار يعرف في الفقه السياسي باسم (ولاية الفقيه)، والذي صار المؤمنون في كلّ زمان وفي كلّ قطر يتفاعلون معه بقدر ما يتسنّى لهم من قدرة على الاستقلال في إدارة شؤونهم في محيط سياسي محكوم ـ تاريخياً ـ لـ (خلافة) يرونها غير شرعية، حيث اقتصرت علاقتهم بالفقيه في معظم الأحيان على ما يمكنهم الرجوع إليه فيه من قضاياهم، ولو في إطار المرافعات القضائية، وبعض شؤون الأوقاف، والولاية

(١) الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٣، ص: ٢٣٧٣.
(٢) م ن، ص: ٢٣٧٤.
(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص: ١٣١.

على القاصرين، والتصرّف بأموال الخمس ونحوه من الحقوق الشرعية، وتحديد نوع العلاقة بالحكومات الجائرة، وأشباه ذلك من استحقاقات أو تحدّيات تعرض لجمهور الناس في هذا القطر أو ذاك، فيرجعون فيها إلى واحد أو أكثر حسبما تسمح به الظروف، وهو أمر قد يتغير من زمان إلى زمان ليصل إلى أهم تجلٍّ له في عصرنا هذا، إثر قيام الثورة الإسلامية في إيران، وإعلانها دستوراً إسلامياً تلتزم فيه بقيادة الوليّ الفقيه، وما تركه ذلك من صدى عالمي جعل فكرة (ولاية الفقيه) موضع اهتمام كبير؛ وهذا الدور الولايتي للمجتهد قد ورد واضحاً في عدد من النصوص، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره من أحاديثَ حول دور العالم، فإنّه قد تحدثت بعض النصوص الأخرى عن الدور الولايتي والحاكمي للفقيه، منها ما روى عن الإمام الصادق(ع) أنّه قال: «... **ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فإنّي قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه، فإنّما استخفّ بحكم الله، وعليه ردّ، والرّاد علينا رادّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله**»[1] ومنها ما في توقيعات الإمام المهدي(عج): «... **وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنّهم حُجّتي عليكم، وأنا حُجّة الله**»[2].

بين البدعة والاجتهاد

على ضوء ماتقدّم من كلام حول الاجتهاد يتبيّن لنا أنَّ الاجتهاد حركة فكريّة مشروعة، تهدف إلى قراءة النص الديني وَفْق منهج مشروع، ويمارسه أشخاص بارعون وعارفون بعلوم العربية والقرآن والحديث والتاريخ والفلسفة، ويقدّمون لجمهور النّاس أفكاراً وفتاوى (شرعية)، أي: منسجمة مع مقاصد الشريعة ومستقاة منها؛ وذلك في قبال (اجتهادات) (غير مشروعة) يطلقها مثقفون وعلماء دين لم

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص: ١٣٦.
(٢) م ن، ص: ١٤٠.

يستكملوا أدوات الاجتهاد ولم يبلغوا في معارفهم رتبته، فرغم أنَّ استنتاجاتهم قد تكون صحيحة، لكنّ صحتها لا يُطمأنّ إليها، لأنَّ أهليتهم العلمية لا تساعد على حيازتهم وسام الحُجيّة، ولا على تصدُّرهم سُدّة المرجعيّة، وهم بذلك لن يكونوا معذورين، وكذا من اتَّبعهم، حين تركوا منارات العلم المجتهدين، وقنعوا بالضحل من المعرفة والقليل من سداد الرأي، وقد جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: ١٥]، وعن النبي(ص) أنّه قال: «**من أفتى الناس بغير علم كان ما يفسده من الدين أكثر مما يصلحه**»[١]، وعن الإمام الصادق(ع) أنّه قال: «**من أفتى الناس برأيه فقد دان بما لا يعلم، ومن دان بما لا يعلم فقد ضادّ الله حيث أحلَّ وحرَّم فيما لا يعلم**»[٢].

ويبقى الخطب هيّناً لو أنَّ هؤلاء السطحيين من المثقفين قد قنعوا بذلك فلم يدخلوا في (البدعة)، ونريد بالبدعة أحد أمرين: إمّا قول رأي لا يستند إلى دليل، أو هو مستند إلى دليل لم يعلم من الشرع جواز الاستناد إليه؛ لأنّه ما دام الاختلاف في العلوم والمعارف الإسلامية مقبولاً، فإنّه لا يعنى جواز التراشق بالأفكار المتعارضة كيفما كان، بل لا بدّ أن يتحلّى كلّ رأي بما يصحّ أن ينسب به إلى الدين، ويعتبرَ في عداد الآراء المنسجمة مع قواعد علم أصول الفقه وما أشبهه من العلوم التي لها علاقة بالشريعة، رغم أنّه قد يكون مستهجناً بعض الشيء وجديداً على الناس، أو مقبولاً في مذهب وغير مقبول في مذهب آخرَ، ففي الحديث عن النبيّ(ص) أنّه قال: «**كلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار**»[٣].

وإذا ظهرت البدعة، وبدا من خلال المقاييس المتّفق عليها أنّها (بدعة) فعلاً،

---

(١) المحدث النوري، مستدرك الوسائل، ج ١٧، ص: ٢٤٨.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ١، ص: ٥٧.

(٣) الكليني، أصول الاكافي، ج ١، ص: ٥٧.

وليست مجرّد (تهمة) يَرشقُ بها المغرضُ أو الحاسدُ بعضَ المجدّدين ولا سوطاً يجلدونهم به، فإنّ على العالم أن يُظهر علمه ويواجه البدعة بما يدحضها، فقد روي عن النبيّ(ص) أنّه قال: «**إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله**»[1]، كما أنَّ على النّاس أن يتناصروا في مواجهتها، إضافة إلى دور السلطة العادلة المهمّ في المساهمة الفعّالة في إضعاف رموزها والتضييق عليهم، بل دورها ـ قبل ذلك ـ ذلك في نشر الوعي الديني الذي سيحصن المجتمع من ظهور البدع فيه أو من تَأَثُّرِه بها إن ظهرت.

وحيث إنَّه قد يكون ثمّة خيط رفيع بين التجديد المشروع وبين البدعة المرفوضة، في بعض الأحيان، فإنّه يجب علينا من أجل رفع اللبس، وحفظ حرّية الرأي، وتشجيع الاجتهاد ونمو الحركة الفكرية، وتعزيز وحدة الصف، يجب التروّي في الاتهام بالابتداع أو الضلال، والحرص على التحاور من خلال المعاهد والمؤسسات العلمية، وعقد الندوات والمؤتمرات، بهدف فهم أفضل وتقييم موضوعي للآراء المطروحة، قبل التسرّع باتخاذ موقف حازم ضدّ هذا الرأي أو ذاك، سواء في داخل المذهب الواحد أو بين مذهب وآخرَ.

مهزلة التكفير المذهبي

نعم، هو مهزلة، لأنَّ المعقول أن تُكفّر مَنْ هو على غير دينك، لأنّه ينكر ما أنت عليه من عقيدة، كلّاً أو بعضاً، فتكفّره ويكفّرك لأنّ كلّاً منكما هو حقّاً كافر بما عليه الآخر، وخارج فعلاً عن دائرة اعتقاده الخاصة، وغير معدود في أمته، رغم ما بين أهل الأديان الأخرى من تفاوت في درجات كفرهم بما نُزّل على نبيّنا محمّد(ص)؛ أمّا أن تصف به من يؤمن بالعقيدة نفسها التي تؤمن بها، ويعمل

(١) م ن، ص: ٥٤.

وفق الشريعة التي تعمل بها، ويعتبر نفسه من الأمة التي أنت منها، وذلك لمجرّد اختلافك معه في بعض الأفكار، فهو مهزلة لا يوافق عليها العقل ولا يقرّها الشرع.

و(الكافر) في اللغة وصف مأخوذ من (كفر) بمعنى: أنكر، وفي الاصطلاح: اسم يختص بمن خرج عن العقيدة الحقّة. وقد استخدم في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة في كِلا المعنيين، لكنّه لم يستخدم في لغة الفقه إلا بمعناه الاصطلاحي، فمن موارد استخدامه في القرآن الكريم بمعناه اللغوي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فإنّ الذي يترك الحجّ رغم قدرته عليه هو فاسق ومذنب، وكأنّه لشدّة ذنبه قد نُزّل منزلة المنكر الذي سمّي إنكاره بأشدّ الألفاظ إدانة، وهو (الكفر) الذي لا يراد به الخروج عن العقيدة.. حتماً، ومن موارد استخدامه بهذا المعنى في الحديث الشريف، ما عن النبي(ص) أنّه قال: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[1]، ورغم وضوح هذه النصوص وأمثالها في الحكم بكفر أشخاص مثل: تارك الحجّ والصلاة وفاعل السحر، فإنّه قد اتفق فقهاؤنا على أنّه لا يراد به الكفر العقائدي والخروج من الدين والارتداد عنه، ما دام لم ينكر وجوب الحجّ والصلاة، أو حرمة السحر، بالنحو الذي يؤدّي إلى تكذيب النبي(ص) والإخلال بالركن الثاني من أركان العقيدة. أمّا موارد استخدام لفظ الكفر في المعنى الاصطلاحي في القرآن الكريم وأحاديث النبي(ص) فهو كثير لا يحتاج إلى ذكر شاهد، عليه.

والمؤسف أنَّ (التكفير) بمعنى الخروج من الدين قد صار يستخدمه المسلمون تهمة لمسلمين آخرين منذ صدر الإسلام، حين نشبت الفتنة بينهم قبل وبعد مقتل الخليفة عثمان، ورغم أنَّ أتباع سائر الأديان في مختلف الأقطار،

---

(١) صحيح مسلم، ج ١، ص: ٦١.

كانوا هم بدورهم قد تورّطوا في (مهزلة) التكفير المذهبي، وصار فريق منهم يكفّر فريقاً آخرَ ويتّهمه بالمروق من الدين والهرطقة، التي ما تزال دخان محارقها ودماء أشلائها حاضرة في تاريخهم إلى أمد قريب، فإنّ ظاهرة التكفير المذهبي في المجتمع الإسلامي ما تزال موجودة وحيّة وتشكّل تهديداً كبيراً لاستقرار المجتمع الإسلامي ووحدة الأمة؛ بل هي ما تزال فرصة يستغلّها العدو للعبث بمقدّراتنا. ولكن متى يَكْفُر المسلمُ وفقاً لرؤية هذا المذهب أو ذاك؟

أمّا الإمامية فإنّهم أجمعوا على أنّ المسلم لا يحكم عليه بالكفر ما دام مؤمناً بأركان الإسلام الثلاثة: التوحيد والنبوّة والمعاد، مهما خالف جمهور المسلمين في تفاصيل العقائد وفروعها، أو في مفاهيم الشريعة وخطوطها العامة وأحكامها الفقهية، بما في ذلك ما لو أنكر ضرورة من ضرورات الدين، كوجوب الصلاة أو حرمة الزنى، إذا كان ذلك الإنكار نتاج شُبهة عرضت، ولم يكن تكذيباً للنبيّ(ص) وتعمّداً لإنكار ما يعلم أنّه من شريعته المطهرة؛ كما وأنّهم يرون أنّ ماله ودمه وعرضه محترم ومصون، لذا فإنّه يسجلّ لهم ـ بإكبار ـ أنّهم قد تعايشوا مع مخالفيهم وزوَّجوهم وتزوَّجوا منهم وعلّموهم وتعلّموا منهم، دون أن يبدوَ في حياتهم ازدواجية بين ما يظهرونه من علاقة بمخالفيهم وبين ما هو مدوّن في فقههم من حرصٍ أكيد على عدم تكفير المسلم المؤمن بأركان الإسلام الثلاثة والتحرز عن وصفه بالكفر مهما اشتدّ خلافهم معه، فقد روي في هذا المجال عن الإمام الباقر(ع) أنّه قال: «**الإيمان ما استقرَّ في القلب، وأفضى به إلى الله عزّ وجلّ، وصدّقه العمل بالطاعة والتسليم لأمره، والإسلام ما ظهر من قول أو فعل، وهو الذي عليه جماعة الناس من الفرق كلّها، وبه حُقنت الدماء، وعليه جرت المواريث، وجاز النكاح واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحج، فخرجوا بذلك من الكفر**»[1] وأمّا تكفير (الناصبيّ) الذي هو اسم لمن يتعمّد بغض

---

(١) المحدث النوري، مستدرك الوسائل، ج ٥، ص: ٥٦.

أهل البيت(ع) فهو ليس قول الجميع، ومن حكم بكفرهم فإنّه قد بنى تكفيرهم على مبدأ: أنّ وجوب حبّهم(ع) هو من ضرورات الدين، وإنكارها المتعمّد بدون شبهة هو مما يستلزم تكذيب النبي(ص)، فينهدم به الركن الثاني من أركان الإيمان؛ كذلك فإنّ من تعمَّد سبَّ الله تعالى، أو رسوله(ص)، أو تنجيس الكعبة الشريفة، مستخفاً بما لها من حرمات ومتنكّراً لما هي عليه من قداسة، فهو أيضاً محكوم بالكفر، لاستلزام عمله هذا تكذيب النبي(ص) أو عدم تنزيه الله تعالى بالنحو الذي تقتضيه صحّة الاعتقاد به جلّ جلاله.

ومحصل ذلك أنّه لما كان الأصل في الإيمان هو الاعتقاد الواعي بتلك الأركان الثلاثة، كان الكفر هو إنكار هذه الأركان أو بعضها، إمّا مباشرة، أو بفعل أو قول ما يستلزم إنكارها كلّاً أو بعضاً عن وعي وتعمد، وحيث إنَّ مدار الإيمان على العقل فإنَّ مدار الكفر عليه، ولذا فإنّه حين يرد في النصوص الشرعية حكم بالكفر على عمل، فلا بدَّ لترتيب حكم الكفر العقائدي عليه من عرضه على ذلك المعيار، فإن لم يظهر من قائله إنكار لشيء من الأركان، فهو (كُفْرٌ) محمول على معناه اللغوي لا العقائدي، ولا يخرج به فاعله من الإيمان حتّى لو كانت عقوبته القتل أحياناً، وعلى هذا فإنّه لا يحكم بكفر أحد من الفرق الإسلامية المعروفة بالتزامها وإيمانها بهذه الأركان.

أمّا غير الإمامية من علماء المذاهب الأخرى، فقد اختلفوا في المعيار الذي به يكون الإنسان مسلماً أو كافراً اختلافاً شديداً ومؤلماً، حيث عبّر عنه بعضهم بقوله: «**ثمّ اعلم أنَّ باب التكفير عظمت فيه المحنة والفتنة، وكثر فيه الافتراق والمخالفة، وتشتّت فيه الأهواء والآراء، وتعارضت فيه دلائلهم، وتناقضت فيه رسائلهم..**»[1]، ورغم أنّهم ـ كما يبدو ـ متوافقون على أن لا دخالة للعقل في

---

(١) رأفت الميقاتي، الوحدة الإسلامية في مواجهة فتنة التكفير،ص: ٥٣، إصدار: تجمع العلماء المسلمين، بيروت، ٢٠٠٦ م.
نقلاً عن: ابن الهمام، شرح الهداية، ص:٤٤٨.

ذلك، فإنهم قد اختلفوا في موجباته اختلافاً كبيراً، بين قائل بعدم كفر أحد من أهل القبلة، وبين من أفرط فقال بكفر من توسّل بالأولياء أو استعاذ بالجنّ.

أمّا حول معيار الكفر والإيمان فقد قال الإمام الغزالي: «**الكفر حكم شرعي كالرّق والحرية مثلاً، إذ معناه إباحة الدم والحكم بالخلود في النار، ومدركه شرعي، فيدرك إمّا بنصّ وإمّا بقياس على منصوص**»[1]، وعن ابن تيمية وابن حجر وابن حزم وابن القيّم قولٌ شبيهة بهذا[2]؛ ولا يخفى أنّ مثل هذا القول سيجعل الإيمان والكفر بدون معيار حاسم ونهائي، لأنَّ معنى كونه حكماً شرعيّاً هو أنّه سيكون خاضعاً لاجتهادات المجتهدين التي هي عرضة للاختلاف الكبير، وهو الأمر الذي يفسّر لنا شيوع الاتهام بالكفر فيهم لأدنى سبب، سواء فيما تراشقوا به فيما بينهم، أو فيما رموا به خصومهم من أتباع المذاهب الأخرى، رغم دعوات معتدلة رفعت شعار (عدم تكفير أحد من أهل القبلة)، ذلك الشعار الذي لا يكاد يبين حين تشتدّ الفتن وتبرز المطامع ويتسلّط حكّام الجور على العباد.

وأمّا حول موجبات الكفر فقد استجمع شتاتها بعض علمائهم فذكر أهم المسائل التي دلّ الكتاب والسُّنَّة على أنّها كفر على النحو التالي:

١ ـ من جعل لله ندّاً مِنْ خلقه فيما يستحقّه الله عزّ وجلّ من الإلهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة، ومن الأمثلة على نوعي الشرك في الألوهية والربوبية: الغلوّ في الأنبياء والغلوّ في الصالحين، بأن يجعل فيه نوعاً من الإلهية أو من خصائص الربوبية، كطلب الغوث أو النصر أو الرزق منه، ويستتاب من فعل ذلك، فإن تاب وإلا قتل (مجموع الفتاوى ٣ـ ٣٩٥، ١ـ ١٢٦، ٣٥٩).

ومن ذلك أيضاً: الغلوّ في القبور، سواء كان قبر نبيّ أو صالح أو شيخ أو نحو

(١) م س، ص: ٤٤.

(٢) م س، ص: ٤٤ ـ ٤٥.

ذلك، بصرف أيّ نوع من أنواع العبادة له، بسؤاله أو الاستنجاد به أو السجود له أو طلب الحاجات منه أو جعله قبلة، فهذا شرط أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قُتِل (مجموع الفتاوى ٢٧ـ ٧٢، ١٧ ـ ٤٧١).

ومن ذلك أيضاً الاستعاذة بالجن والرُّقى الشركية (١ـ ٣٣٦ مجموع الفتاوى).

٢ ـ كَفر تارك الإسلام بالكلّية: ومن لم يأتِ بالشهادتين فهو كافر باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها. والإجماع على أنَّ من جحد وجوب شيء من الأركان الأربعة فهو كافر، وأما تَرْكُ شيء من الأركان الأربعة بالكلّية مع الإقرار بوجوبها ففيه خلاف، وخاصة في مسألة ترك الصلاة، إلا أنَّ هذا الخلاف بين الأئمة يضيق إذا ما تحرينا المراد من القول بتكفير تارك الصلاة، وأنّه هو تاركها بالكلّية، لا الذي ترك المحافظة عليها في أوقاتها (مجموع الفتاوى ٧ ـ ٦١٥).

٣ ـ كَفر من ردَّ شرع الله أو بعضه: ويشتمل على ثلاثة أمور:

الأول: كفر من ردّ ما ثبت بالكتاب والسُّنَّة، ويدخل فيه من عارض القرآن الكريم بعقله ورأيه وإن لم يزعم تقديم كلامه على كلام الله ورسوله، بل إذا قال ما يوجب المرية والشكّ في كلام الله، فكيف بمن يزعم أنَّ ما يقوله بعقله ورأيه مقدّم على نصوص الكتاب والسُّنَّة (درء تعارض العقل والنقل ٥ـ ٢٠٦).

الثاني: كفر من أنكر الأحكام المتواترة والمجمع عليها إجماعاً قطعياً (مجموع الفتاوى ٣٨ ـ ٣٩) و(١٨ ـ ٥٠ ـ ٥١).

الثالث: كفر من أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة ولا يقوم الدين إلا به كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات وحِلّ المباحات، غير أنَّ الجاهل معذور والمعاند لله ورسوله كافر، «فإنَّ من جحد شيئاً من الشرائع الظاهرة وكان حديث العهد بالإسلام أو ناشئاً ببلد جهل لا يكفر حتّى تبلغه الحُجّة النبويّة» (مجموع الفتاوى ٦ـ ٦١).

٤ ـ كَفر من سبّ الله أو استهزأ به أو بشيء من آياته أو سبّ أحد أنبيائه أو استهزأ به أو كفره أو قذف أمهات المؤمنين.

٥ ـ كَفر من استحلّ الحكم بغير ما أنزل الله.

٦ ـ كَفر من استحلّ المعصية (منهج ابن تيمية للمشعبي ج٢، ص٤٩ وما يليها) (اقتضاء الصراط المستقيم ٢٣٨ ومجموع الفتاوى ٢ ٣٦٨ و١٢ ـ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

٧ ـ نفي صفات الله وأسمائه، أو تشبيه الله بخلقه أو وصف غير الله بصفة لا تكون إلا لله. (مجموع الفتاوى ٣ ـ ١٦٠ ـ ٢١٠ و١١ ـ ٤٨٢).

٨ ـ التشبّه بالكفّار مطلقاً وعدم تكفيرهم أو الشكّ في كفرهم أو تسويغ اتباع دينهم أو موالاتهم ولاءً مطلقاً)[١].

وفي قبال هذه الأقوال فإنَّ جماعة منهم قد عذروا من اجتهد في رأي فخرج به عمّا عُلم أنّه من الدين، لا مكابرة منه بل لاعتقاده بأنّ الدين هكذا، قال ابن حجر العسقلاني: «**قال العلماء: كلّ متأول معذور بتأويله ليس بآثم، إذا كان تأويله سائغاً في لسان العرب، وكان له وجه في العلم**»[٢].

كذلك فإنّ بعضهم يفرّق بين حالة كون الرأي كفراً و بين الحكم بكفر قائله، وذلك «**أنَّ معتقد الكفر أو قائله أو فاعله لا يحكم بكفره على التعيين حتَّى تجتمع فيه الشروط وتنتفي عنه الموانع، وأنَّ الواجب ليس المسارعة في تكفيره، إنّما إقامة الحُجّة عليه وإسقاط الشبهات التي يعتقدها، وأنَّ وصفه الشرعي إلى أن تقام عليه الحُجّة هو: (مخطىء غالط)، لا خارج عن الملّة، وعلى هذا جماهير أئمة الإسلام**»[٣].

---

(١) م س، ص: ٥٤/ ٥٥/ ٥٦.
(٢) م س، ص: ٤٩.
(٣) م س.

وكيف كان رأي الإمامية أو رأي غيرهم فإنَّ من الأهمية بمكان كبير أن يُولى هذا الموضوع عناية استثنائية ما دام سيكون ركناً أساساً في تصحيح نظرة المسلم لأخيه ومناصرته له وتَوحّده معه، لا سيّما وقد فشا في زماننا هذا تكفير المسلم لأخيه واستحلاله لدمه لمجرّد فتاوى غير دقيقة، سواء من كان منهم على مذهبه أو لم يكن، فاضطرب من أجل ذلك أمن المسلمين وتصدّعت وحدتهم وبدت فيهم البغضاء والعصبية، ودخل العدو بمكره وكيده في بعض أحزابهم أو أعمالهم، فصار يُذكْي هذه الفُرقة ويُسعّر الفتنة ويبالغ في القتل والبغي، وبالتأكيد فإنّه لا يمكن معالجة مشكلة التكفير إلا بالحرص الكبير ـ ومن الجميع دون استثناء ـ بأن يلتقوا ويتحاوروا ليتعارفوا، ثمَّ ليتوحدوا على التناصر فيما هم متفقون عليه، وأيضاً على احترام ما هم مختلفون فيه وتفهّم مسوغاته.

فريضة الوحدة الإسلامية

تنبثق فكرة الوحدة بين المذاهب الإسلامية المختلفة من نفس الأصل الذي جعل (التمذهب) مشروعاً، وذلك أنّه إذا صحّ أنَّ كلَّ مذهب هو إسلامي، فذلك يعني أنّه يحمل في داخله عناصره الأساس التي يشارك فيها كلّ مذهب آخر، والتي هي نفس العناصر التي صارت بها جميع المذاهب إسلامية، فهي واحدة.. إذن، شاءت المذاهب ذلك أم أبت، وبخاصة إذا التزم الجميع بترك (التكفير) الذي تبيَّن أنّه غير سائغ عند الاختلاف المشروع المرتكز على جواز الاجتهاد الذي لا يترتّب عليه تعمّد إنكار واحد من أركان الإيمان الثلاثة.

تأسيساً على ذلك فإن الاستجابة يجب أن تكون تامة وفورية لقوله تعالى الآمر الحاسم: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم

مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣-١٠٥]، وذلك لرسم مسار حركة هذه الوحدة في المجتمع الإسلامي، وتحديد آليات عملها:

ـ أخلاقاً تؤسّس لعلاقة طيبة تسود فيها المحبّة والرحمة.

ـ ووعياً لنقاط القوّة والضعف، والصديق والعدو، يتجسّد تعاضداً وتناصراً وتعاوناً.

ـ وعزماً على مواجهة الصعاب وتحقيق الأهداف، يتمثل في الأخذ بأسباب القوّة والحرص على تهيئة عدّتها وإبراز مظاهرها.

ولكثرة البداهات التي تحكم فكرة الوحدة الإسلامية وتجعلها فوق النقاش بجميع جوانبها، فإنّنا ـ وجرياً منّا على قاعدة (خير الكلام ما قلّ ودلّ) ـ نرى أنّ أهمّ ما نحتاجه لتعزيز وحدتنا الإسلامية هو ما يسمّيه القرآن الكريم بـ «**القلب السليم**»، الذي يعمر بالتقوى والخلق الفاضل، فيرجو فيما يعمل وجه الله تعالى، ويخافه في السرّ والعلن، ويحرص على طاعته ونصرة دينه، ويتواضع لإخوانه ويحبّهم ويحترمهم، ويحبّ لهم ما يحبّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لها، وحينئذٍ سيَحلّ الحبُّ محلَّ العصبية، ونصرةُ الدين بدلَ نصرة المواقع والمطامع، وتجري أمور المسلمين في مباركة الله تعالى وجميل عنايته، ويَسْهلُ تنفيذ العديد من الآمال التي تَعْمُر بها القلوب، بدلَ أن تبقى مقترحاتٍ تزدانُ بها الكتب وتتراكمُ في رفوف المكتبات.. عقداً بعد عقد، بل قرناً بعد قرن.



محتويات الكتاب





نبذة عن المؤلّف
الشيخ محسن عطوي

- مواليد برج قَلَوَيه - جنوب لبنان 1953.
- التحق بالحوزة العلمية (المعهد الشرعي الإسلامي) في لبنان سنة 1966م.
- التحق بالحوزة العلمية في النجف الأشرف سنة 1970.
- عضو مكتب الاستفتاء في مؤسسة العلامة المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله رضوان الله عليه.
- عضو المجلس المركزي في تجمع العلماء المسلمين في لبنان.

صدر له العديد من الكتب منها:

- زاد المبلّغين.
- المرأة في التصوّر الإسلامي.
- الجنس في التصوّر الإسلامي.
- خلاصة الاعتقاد.
- الفقه الميسّر.
- كيف نربّي أبناءنا.
- اختيار الشريك بين العقل والعاطفة.
- الخمس فريضة إلهية.
- فقه التجارة وآدابها.
- العلاج وأحكامه.
- عبادة التفكير.
- الزواج المؤقّت: شرعيته وأحكامه.
- الطلاق في الشريعة الإسلامية.
- له العديد من المقالات والأبحاث والمحاضرات في شتى العلوم والمعارف الإسلامية والاجتماعية والثقافية.
- كانت له مساهمات عدة في إعداد الكثير من كتب سماحة العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله رضوان الله عليه.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات في لبنان والخارج.

الشيخ محسن عطوي

عبادة التفكير

إصدار المركز الإسلامي الثقافي